

{ملتقى التفاسير}

تفسير

سورة الزمر

جمع وإعداد

محمد مريس الحجاجي

ملتقى التفاسير

[تفسير سورة {الرَّحْمَنُ}]

مكية في قول الجمهور وعدد آياتها (ثمان وسبعون آية) في عدّ الكوفة والشام، وسبع في الحجاز، وست في البصرة (.)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة السورة

أخرج التّحّاس عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الرَّحْمَن بِمَكَّةَ.
وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: أنزل بِمَكَّةَ سورة الرَّحْمَن.
وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت سورة الرَّحْمَن بِمَكَّةَ.
وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الرَّحْمَن بِالْمَدِينَةِ.
وأخرج أحمد وابن مردويه بسند حسن عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمُشْرِكُونَ يسمعون {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.
وأخرج الترمذي وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرَّحْمَن من أولها إلى آخرها فَسَكَتُوا فَقَالَ: مَا لِي أَرَأَكُمْ سَكُوتًا لَقَدْ قَرَأْتُمَا عَلَى الْجَنِّ لَيْلَةَ الْجَنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ كُنْتُ كُلَّمَا أُتِيتَ عَلَى قَوْلِهِ {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ. وحسنه الالباني في الصحيحة.

١ - قال الشيخ عبد الكريم الحضير " يقول: "ست أو ثمان وسبعون آية" لا زيادة حرف ولا نقص حرف، إنما الاختلاف في عد البسملة آية فيكون الفرق آية واحدة، وعد {الرَّحْمَنُ} [(١) سورة الرحمن] آية مستقلة، أو بعض آية، فيكون {الرَّحْمَنُ} *عَلَّمَ الْقُرْآنَ} [(١) - (٢) سورة الرحمن] آية، وهذا في جميع القرآن، يعني العد البصري والعد الكوفي والعد كذا على حسب ما يرون في البسملة، وفصل بعض الآيات عن بعضها، بعضهم يجعل الآية آيتين، وبعضهم يجعلها آية واحدة، مثل الفاتحة الآن، الفاتحة سبع آيات {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي} [(٨٧) سورة الحجر] سبع آيات، وتجدون في المصاحف بعضها البسملة معدودة والعدد سبع، وفي بعضها البسملة غير معدودة والعدد سبع، والسبب {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [(٧) سورة الفاتحة] إما أن تكون آية كاملة أو نصف آية، فإن عددنا البسملة قلنا: نصف آية، وأكملنا إلى آخر السورة آية واحدة، وإذا قلنا: البسملة آية .. ، إذا قلنا: إنها آية عددنا الآيتين {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} غير المغضوب عليهم وَلَا الضَّالِّينَ} [(٧) سورة الفاتحة] آية واحدة، وإذا قلنا: البسملة ليست بآية، وبدأننا من {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] الأولى قسمنا هذه الآية إلى آيتين، وهذا أمر معروف، وهذا لا يتأثر به القرآن، القرآن مصون من الزيادة والنقصان، يعني العد هذا لا تأثير له، لكن الإشكال أن يفهم أنه ما دام قال واحد: ست وسبعين وقال: ثمان وسبعين الفرق آيتين وين راحت الآيتين؟ أين ذهبت الآيتان؟ لا، لا ما ذهب شيء ولا يحتل زيادة ولا نقصان إنما مرد الخلاف هذا".

وَأَخْرَجَ الْبَزَّازُ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُثَنَّرِ وَالْدَّارَقُطْنِيَّ فِي الْأَفْرَادِ وَابْنَ مَرْذُوقٍ وَالْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ عَلَى أَصْحَابِهِ فَسَكَتُوا فَقَالَ: مَا لِي أَسْمَعُ الْجَنَّ أَحْسَنَ جَوَابًا لِرَبِّهَا مِنْكُمْ مَا أَتَيْتَ عَلَى قَوْلِهِ {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} إِلَّا قَالُوا: لَا شَيْءَ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ. وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنْ عَلِيٍّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لِكُلِّ شَيْءٍ عُرُوسٌ وَعُرُوسُ الْقُرْآنِ الرَّحْمَنُ.

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَارِئُ الْحَدِيدِ وَ {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} وَالرَّحْمَنُ يَدْعَى فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سَاكِنُ الْفَرْدُوسِ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَوَّلُ مَفْصَلِ ابْنِ مَسْعُودٍ الرَّحْمَنُ.

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَنِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ قَرَأْتُ الْمَفْصَلَ فِي رَكْعَةٍ فَقَالَ: أَهَذَا كَهَذَا الشَّعْرَ لَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ النَّظَائِرَ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةِ الرَّحْمَنِ وَالنَّجْمِ فِي رَكْعَةٍ وَاقْتَرَبَتْ وَالْحَاقَةُ فِي رَكْعَةٍ وَالطُّورِ وَالذَّارِيَاتِ فِي رَكْعَةٍ وَإِذَا وَقَعَتْ وَإِنْ فِي رَكْعَةٍ وَعَمَّ الْمُرْسَلَاتِ فِي رَكْعَةِ الدُّحَانِ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ فِي رَكْعَةٍ وَسَأَلَ سَائِلٌ وَالنَّازِعَاتِ فِي رَكْعَةٍ وَوَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ وَعَيْسٌ فِي رَكْعَةٍ.

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي التَّارِيخِ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوتِرُ بِتِسْعِ رَكْعَاتٍ فَلَمَّا أَسَنَ وَثَقَلَ أُوتِرَ بِسَبْعِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ فَقَرَأَ فِيهِمَا الرَّحْمَنَ وَالْوَاقِعَةَ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ حَبَانَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اقْرَأْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ فَخَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ عَشِيَّةً فَجَلَسَ إِلَيَّ رَهْطٌ فَقُلْتُ لِرَجُلٍ: اقْرَأْ عَلَيَّ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ حُرُوفًا لَا أَقْرؤها فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ قَالَ: اقْرَأْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى وَقَفْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: اخْتَلَفْنَا فِي قِرَاءَتِنَا فَإِذَا وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ حِينَ ذَكَرَ الْإِخْتِلَافَ فَقَالَ: إِنَّمَا هَلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِالْإِخْتِلَافِ فَأَمَرَ عَلِيًّا فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ كَمَا عَلِمَ فَإِنَّمَا هَلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِالْإِخْتِلَافِ قَالَ: فَانْطَلَقْنَا وَكُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ لَا يَقْرَأُ حَرْفًا لَا يَقْرَأُ صَاحِبَهُ.

قال القرطبي: "مكية كلها في قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس: إلا آية منها هي

قوله تعالى يسأله من في السماوات والأرض الآية وهي ست وسبعون آية، وقال ابن مسعود ومقاتل هي مدنية كلها

والقول الأول أصح لما روى عروة بن الزبير قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود

وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال ابن مسعود أنا فقالوا:

إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه، فأبى ثم قام عند المقام فقال: بسم الله الرحمن الرحيم الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ

الْقُرْآنَ ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش في أنديتها فتأملوا وقالوا ما يقول ابن أم عبد؟ قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد

صلى الله عليه وسلم أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه، وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم قام يصلي الصبح بنخلة فقرأ

سورة الرحمن ومر النفر من الجن فأمنوا به، وفي الترمذي عن جابر قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على

أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: لقد قرأناها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما أتيت على قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد، قال حديث غريب (وقد حسنه الالباني في السلسلة الصحيحة). وفي هذا دليل على أنها مكية والله أعلم. انتهى

وفي التحرير والتنوير لابن عاشور: وهي مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين، وروى جماعة عن ابن عباس أنها مدنية نزلت في صلح القضية عندما أبى سهيل بن عمرو أن يكتب في رسم الصلح بسم الله الرحمن الرحيم. ونسب إلى ابن مسعود أيضاً أنها مدنية. وعن ابن عباس: أنها مكية سوى آية منها هي قوله يسأله من في السماوات والأرض كل هو في شأن. والأصح أنها مكية كلها وهي في مصحف ابن مسعود أول المفصل. انتهى.

هذا، وننبه إلى أن ما تقدم من المصادر ينسب إلى ابن مسعود القول بأن هذه السورة مدنية مع أن من رجح منهم أنها مكية استدل بقراءة ابن مسعود لها في مكة.

ومن هنا يحصل إشكال وهو كيف ينسب القول لابن مسعود أنها مدنية وهو الذي قرأها في مكة؟ (وربما انهم يرون ضعف اسناد الرواية في حادثة قراءة ابن مسعود رضي الله عنه في مكة)

والصحيح - كما رجَّحه الشيخ عبد الكريم الخضير -: أنها مكية! انظر (شرح الزمزمي ص ٥٦).

وقال في التعليق على الجلالين " ومنهم من قال: إن السورة كلها مدنية هذا قول ثالث في المسألة، لكنه قول مرجوح؛ لأنه ثبت أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قرأها ليلة الجن، وهذه بمكة على ما سيأتي من عتاب الصحابة، من عتاب النبي -عليه الصلاة والسلام- لصحابته حينما قرأ عليهم وسكتوا ولم يتكلموا بشيء".

وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر خلافاً لقتادة.

قال الإمام السيوطي -رحمه الله-: الجمهور على أنها مكية، وهو الصواب. انظر: الإتيقان ١ / ٣٣.

ومن اختار القول بأنها مكية أيضاً ابن كثير في تفسير القرآن العظيم. والبغوي في معالم التنزيل والتعليق في تفسيره الكشف والبيان والواحد في الوجيز في تفسير الكتاب العزيز والسمعي في تفسير القرآن والسيوطي في كتابه الإتيقان والشوكاني في فتح القدير والآلوسي في روح المعاني وابن سعدي في تيسير الكريم الرحمن

وأما من قال إنها مدنية: فالطبري في جامع البيان والسمرقندي في تفسيره بحر العلوم والزمخشري في الكشف. ومن ذكرهما ولم يرجح: البيضاوي في تفسيره وابن الجوزي في زاد المسير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُحْسِبَانِ} [الرحمن: ٢] ()

١ - الرحمن في اللغة صفة مشبهة، مستعملة كصيغة للمبالغة، وهي أبلغ من الرحيم، والرحمة في حقنا رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم بالعون، وتقتضي العطف والمسامحة، والرحمة تستدعي مرحوما فهي من صفات الأفعال، والرحمن اسم يختص بالله سبحانه وتعالى

أي الله الرحمن علم القرآن ، ويسره للحفظ والفهم ، قال محمد بن السائب الكلبي : ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ علم القرآن محمداً (تفسير البغوي).

، ولا يجوز إطلاقه في حق غيره ، ومعني الرحمن الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم ، ووسع عليهم رزقهم ، ووسعت رحمته كل شيء ، فالرحمة في اسمه الرحمن شملت رحمته للمؤمنين والكافرين في هذه الدنيا ، ورحمة الله من أعظم صفاته بالنسبة لعباده ، فهي تفتح أبواب الرجاء والأمل وتدفع أبواب الخوف واليأس وتشعر الشخص بالأمان والأمان ، والله عز وجل غلبت رحمته غضبه ، ولم يجعل الله لنا في هذه الدنيا إلا جزءا يسير من واسع رحمته ، به يتراحم الناس ويتعاطفون وكذلك سائر الأحياء في الأرض أجمعون ، كما ثبت عند الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عَنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ ، وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنِ الْبُخَارِيِّ : (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَأَمْسَكَ عَنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً ، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً ، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ) ، وفي الحديث المتفق عليه من حديث عُمر بن الخطاب أَنَّهُ قَالَ : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي ، - وقد سبيت وابتعدت عن طفلها - إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ - ليخفف ألم اللبن في ثديها وهي تبحث عن طفلها حتى وجدته فأخذته وضمته وأرضعته يقول عمر - فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ، قُلْنَا لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا .

فالرحمة التي دل عليها اسمه الرحمن رحمة عامة بأهل الدنيا كما قال تعالى : (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (القصص: ٧٣) ، (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) (الفرقان: ٤٨) ، (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخَيِّبٍ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الروم: ٥٠) ، ولما كانت الرحمة التي دل عليها اسمه الرحمن رحمة عامة بالخالق في الدنيا ، فإن الله خص اسمه الرحمن عند ذكر استوائه على عرشه فقال تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: ٥) ، لأنه فوق الكل مؤمنهم وكافرهم ، وحياتهم قائمة بإذنه ، وأرزاقهم مكنونة في غيبه ، وبقائهم رهن مشيئته وأمره ، فلا حول ولا قوة لهم إلا بقوته وحوله ، فهو الملك والكل في مملكته (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) (الفرقان: ٥٩) .

وروى الطبراني في الصغير وحسنه الشيخ الألباني من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : (ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك ، قل يا معاذ : اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، الرحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك) . (الاسماء الحسنى للرضواني).

وقال مقاتل بن سليمان: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وذلك أنه لما نزل: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ قال كفار مكة: ﴿وما الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠] فأنكروا الرحمن، وقالوا: لا نعرف الرحمن. فأخبر الله تعالى عن نفسه، وذكر صنعه ليُعرف، فيُوحّد، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي أنكروه هو الذي ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾

وقال الخازن: إن الله عز وجل عدد نعمه على عباده، فقدم أعظمها نعمة، وأعلىها رتبة، وهو (القرآن العزيز)، لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكرا، وأحسنه في أبواب الدين أثرا، وهو سنام الكتب السماوية، المنزلة على أفضل البرية

وقال الطبري " الرَّحْمَنُ أَيُّهَا النَّاسُ بِرَحْمَتِهِ إِيَّاكُمْ عَلَّمَكُمُ الْقُرْآنَ، فَأَنْعَمَ بِذَلِكَ عَلَيْكُمْ، إِذْ بَصَّرَكُمْ بِهِ مَا فِيهِ رِضَا رَبِّكُمْ، وَعَرَّفَكُمْ مَا فِيهِ سَخَطُهُ، لِنُطِيعُوهُ بِاتِّبَاعِكُمْ مَا يُرْضِيهِ عَنْكُمْ، وَعَمَلِكُمْ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَتَجَنُّبِكُمْ مَا يُسْخِطُهُ عَلَيْكُمْ، فَتَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ جَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَتَنْجُوا مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ "

وقال الشيخ ابن عثيمين " الرحمن اسم من أسماء الله، بل هو من أشرف أسمائه وأعظمها، والعجب أن المشركين ينكرونها، يقولون: ما الرحمن؟ ولا ندري ما الرحمن؟ حتى عند كتابة الصلح بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديبية، النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: (اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن؟! ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتب باسمك اللهم -انتبه- ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله .. - وذكر بقية الحديث - قالوا: ما نقبل، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فقال الرسول: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله) ثم ذكر الشروط. انظر يا أخي! كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يراعي المصلحة في أمرٍ عظيم، في عدم كتابة اسم من أسماء الله، وفي عدم كتابة رسالته مع أنه حق، ولهذا قال: (إني والله لرسول الله وإن كذبتهموني) تنازل عن اسم من أسماء الله وعن الإقرار برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام، كل ذلك من أجل المصلحة"

فاسم الرحمن كان مستنكراً عند المشركين، ومن ثم استنكره سهيل بن عمرو في صلح الحديبية عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتبه في الاتفاقية، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم لـ علي: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل بن عمرو: لا ندري ما الرحمن؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم).

وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الإسراء: ١١٠]، وقال سبحانه: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا } [الفرقان: ٦٠]، فاسم الرحمن كان مستنكراً عند أهل الشرك من أهل مكة، عند مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم. ...

قال ابن عثيمين " والرحمن اسم من أسماء الله، وكل اسم من أسماء الله يتضمن صفة من صفات الله، وليس في أسماء الله ما لا يدل على صفة إطلاقاً، لكن أسماء المخلوقين هل تدل على الصفات؟ لا. قد يقال: هذا (عبد الله) وهو من أكفر عباد الله، ليس فيه شيء من صفات العبودية، وقد يقال: فلان اسمه (صالح) وهو من أفسد عباد الله، لكن أسماء الله لا بد أن

تتضمن صفة دل عليها هذا الاسم. ولذلك أنا أقول: كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة متضمنة لاسم، وبهذا نعرف أن الصفات أوسع من الأسماء، إذ قد يوصف الله عز وجل بصفة ولكن لا يشتق منها اسم الله، ولكن كلما وجدت اسماً فإنه متضمن لصفة. مثلاً: الرحمن متضمن للرحمة، السميع للسمع، البصير للبصر، الحكيم للحكمة.. وهلم جرا، ولذلك غلط المعتزلة الذين يقولون أنهم عقلاء، فخالقوا العقل في قلوبهم: إن أسماء الله مجردة عن الصفات، نقول: كيف يمكن أن يسمى السميع ولا سمع له، هل هذا معقول؟! أبداً. ليس صحيحاً نقلاً ولا عقلاً. (الرحمن) من رحمة الله عز وجل ما نراه من النعم الكثيرة واندفاع النقم، فكم لله علينا من نعمة!! وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا [النحل: ١٨] كلها من آثار رحمته؛ المطر من رحمته، نبات الأرض من رحمته، الأمن من رحمته، الرخاء في العيش من رحمته: وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ [النحل: ٥٣].

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير "الرحمن" اسم من الأسماء الحسنى، لا يسمى به غير الرب -جل وعلا-، لا تجوز التسمية به، وأما تسمية مسيلمة الكذاب برحمن اليمامة هذا من شدة عتوه وعناده وعناد أتباعه، وإلا فالاسم خاص بالله -جل وعلا-، وأما بالنسبة للفظ الجلال (الله) فهذا الله -جل وعلا- قبض الألسنة عن أن يسمى به، وهو خاص به، وهناك أسماء مشتركة مثل الكريم، ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، العزيز {قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ} [سورة يوسف: ٥١] والله -جل وعلا- هو العزيز ..

"علم من شاء القرآن" الرحمن الرب -جل وعلا- علم من شاء القرآن، يعني من شاء هدايته، ومن شاء أن يكون من خير هذه الأمة ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) من شاء له التوفيق في أمور دينه ودنياه يعلمه القرآن، بخلاف من صد عن تعلم القرآن، أو تعلمه ولم يقم به، علم من شاء، وبعضهم يقدر المفعول الأول بجبريل، علم جبريل القرآن، وجبريل نزل به إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، ومنهم من يقدر المفعول الأول بدلاً من التعميم من شاء بمحمد -عليه الصلاة والسلام-، علم محمداً القرآن، وهذا رد لقول المشركين {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} [سورة النحل: ١٠٣] والتعميم يشمل جبريل -عليه السلام-، ومحمد -عليه الصلاة والسلام-، ويشمل من أراد الله به خيراً من هذه الأمة، وفيهم كثرة -ولله الحمد-، سلف هذه الأمة وأئمتها عنايتهم بالقرآن لا تحتاج إلى استدلال، فلا يعرف عالم من علماء المسلمين المتقدمين من ليس له عناية بالقرآن أبداً، نعم قد يوجد في العصور المتأخرة من ينتسب إلى العلم ويهتم بالحديث ويقصر في القرآن، يوجد من يعنى بالعقيدة ويقصر في جانب القرآن، يوجد من يعنى بالفقه والأحكام من الحلال والحرام ويقصر في القرآن، لكن من علماء الأمة الربانيين الذين يستحقون هذا اللقب هذا لا يعرف فيهم، ولذا في تراجمهم ما عرفنا إلا في ترجمة ابن أبي شيبة قالوا: إنه لا يحفظ القرآن، وأما غيره ما نص عليه، دليل على أن تعلم القرآن وتعليم القرآن قاسم مشترك للعلماء كلهم من مفسرين ومحدثين وفقهاء وغيرهم، ممن له عناية بالعلم الشرعي، وعلم من شاء القرآن، ف(علم) يتعدى إلى مفعولين، والقرآن يطلق ويراد به المصدر القراءة، ويطلق ويراد به اسم المفعول أي المقروء، وإذا تعلم القراءة تعلم المقروء؛ لأن القرآن كما يطلق على ما بين الدفتين من كلام الله -جل وعلا- يطلق أيضاً على القراءة .

وقال الشيخ مصطفى العدوي " يثني الله سبحانه وتعالى على نفسه، ويمدح الله سبحانه وتعالى نفسه، ليس ذلك للبشر، فليس لنا أن نمدح أنفسنا، ولا أن نثني عليها، إلا إذا دعت ضرورة لذلك، كما قال يوسف الصديق عليه السلام: { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف: ٥٥]، وكما قال عثمان رضي الله عنه: (أناشدكم الله، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من حفر بئر رومة فله الجنة فحفرتها؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أناشدكم الله، هل تعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزته؟ قالوا: اللهم نعم) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار: (ألم أجِدْكم ضالًّا فهداكم الله بي؟ قالوا: اللهم نعم، قال: ألم أجِدْكم عالة فأغناكم الله بي؟ قالوا: اللهم نعم) إلى آخر الحديث، فالثناء على النفس الأصل أنه ممنوع إلا إذا دعت حاجة إليه، لكن ربنا سبحانه وتعالى يثني على نفسه، فهو المنان سبحانه، فيقول سبحانه: { الرَّحْمَنُ } [الرحمن: ١]، ثم يعدد نعمه على خلقه، فيقول سبحانه في بداية هذه النعم، وأوائل هذه النعم: { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [الرحمن: ٢]، فهي أكبر نعمة أنعم الله سبحانه وتعالى بها علينا، هي تعليمنا القرآن، ولولا تعليمنا القرآن لكنا من أهل النيران والعباذ بالله! وأي خسارة بعد هذا الخسارة أن يودع الشخص في سجين والعباذ بالله؟! فأول نعمة ذكرت في هذه السورة الكريمة -التي يطلق عليها بعض العلماء: سورة النعم- هي نعمة تعليم القرآن، ففي تعليم القرآن فضائل ذكر بعضها في كتاب الله.

أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيها: (خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه) ، وقال صلوات الله وسلامه عليه: (إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين).

فيقول سبحانه: { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [الرحمن: ٢] فهو سبحانه علم الطب وعلم الهندسة وعلم الزراعة والصناعة والحرف، ولكن لم يكن الامتحان الأول بقوله: علم الطب، ولا علم الزراعة، ولا علم الهندسة، إنما صدر بقوله تعالى: { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [الرحمن: ٢]، وبضمنية حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، وبضمنية قوله تعالى: { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت: ٣٣] تظهر فضل تعلم القرآن ".

[خلق الإنسان] أي خلق الإنسان السميع البصير الناطق ، والمراد بالإنسان الجنس .

قال أبو العالية الرِّياحِيّ والحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ اسم جنس، وأراد به: جميع الناس "(تفسير البغوي) .

وقال عبد الله بن عباس: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني: آدم (تفسير الثعلبي والبغوي).وبه قال قتادة ومقاتل وابن جريج.

وقال ابن كيسان: الْإِنْسَانُ: محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الطبري "والقولان كلاهما(يعني الاول والثاني) غير بعيدين من الصواب؛ لاحتمال ظاهر الكلام إياهما " .

وقال ابن عطية عن القولين الثاني والثالث " وهذا التخصيص لا دليل عليه".

قال ابن عثيمين " وبدأ الله تعالى بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان إشارة إلى أن نعمة الله علينا بتعليم القرآن أشد وأبلغ من نعمته بخلق الإنسان وإلا فمن المعلوم أن خلق الإنسان سابق على تعليم القرآن، لكن لما كان تعليم القرآن أعظم منه من الله - عز وجل - على العبد قدمه على خلقه " .

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير " خلقه أوجده من العدم، والمراد بالإنسان "الجنس" جنس الإنسان، من آدم -عليه السلام- إلى آخر مخلوق من هذا الجنس، الله -جل وعلا- هو خالقه، وأما ما يزعمه البشر من أنهم يخلقون نعم يفعلون ويصنعون، والله -جل وعلا- هو خالقهم، وخالق ما يعملون، خالق أفعالهم، ويزعمون أنهم يخلقون إنسان يسمونه آلي، لكنه في الحقيقة ليس بإنسان، فالخالق للإنسان هو الله -جل وعلا-، والإنسان هو الذي يأنس ويؤنس به، فهذه الآلة التي يخلقونها ويزعمون أنها إنسان آلي لا تأنس ولا يؤنس بها جماد، ولن يستطيعوا أن يخلقوا ما فيه روح، ولو اجتمعوا على ذلك، وتضافروا عليه، ولن يستطيعوا أن يخلقوا أقل المخلوقات شأنًا وهو الذباب، ولو اجتمعوا له، يعني لو اجتمعت قوى الشرق والغرب ما استطاعوا أن يخلقوا ذبابًا، كما قال الله -جل وعلا- في آخر سورة الحج " .

قوله تعالى { علمه البيان }

قولان :الأول :أنه بيان الحرام والحلال .

أخرج ابن المُنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله {خلق الإنسان علمه البيان} قال: آدم {علمه البيان} قال: بين له سبيل الهدى وسبيل الضلالة.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المُنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله {الرحمن علم القرآن} قال: نعمة الله عظيمة {خلق الإنسان} قال: آدم {علمه البيان} قال: علمه الله بيان الدنيا والآخرة بين حلاله وحرامه ليحتج بذلك عليه والله الحجة على عباده.

الثاني :أنه الكلام والمنطق.

قال أبو العالية الرياحي والحسن البصري :﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ التُّطْق والكتابة والفهم والإفهام، حتى عرف ما يقول وما يقال له.(تفسير الثعلبي والبغوي).

وقال محمد بن كعب القرظي :﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ما يقول وما يقال له (تفسير الثعلبي).

وقال إسماعيل السدي :﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به (تفسير الثعلبي والبغوي).

وقال مقاتل بن سليمان في تفسيره :﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ يعني: بيان كل شيء .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- قال :﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ البيان: الكلام (تفسير الطبري).

قال الشيخ عبدالكريم الخضير " أي جنس الإنسان {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [(٤) سورة الرحمن] والمراد بالبيان "النطق" ما يبين به عما في ضميره، النطق هذا هو الذي يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، يشارك كثيراً من الحيوانات النامية في الحياة والنمو لكنه ينفصل عنهم، وينفرد عنهم بالنطق، فإذا قيل: حيوان ناطق، لا يدخل فيه غير الإنسان، هذا وصف كاشف مخرج لجميع أفراد ما ينطبق عليه الحيوان، فإذا قيل: ناطق، انتهى، خرج ما عدا الإنسان، ولذلك قال: {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}

[٤) سورة الرحمن] "النطق" فهو الذي يستطيع أن يبين عما في نفسه، وبقية الحيوانات عجماء، وجاء في الحديث: ((العجماء جبار)) يعني جنابة العجماء -الدابة- جبار؛ لأنها عجماء لا تبين عن نفسها، عما في نفسها فهي عجماء، من ذلك سمي الأعاجم والعجم هذا الذين لا ينطقون بالعربية، فباعتبار أن العربية هي لغة الكتاب والسنة فكأن ما عداها لا قيمة له، لا يستطيع أن يبين عما في نفسه بالنسبة لهذه اللغة، ولذلك قوبلت الأعجمية بالعربي {أَعْجَمِي وَعَرَبِي} [٤٤) سورة فصلت].

ورجح الطبري العموم فقال "وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا بِهِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمَعَاشِ وَالْمَنْطِقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا بِهِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَمْ يُخَصِّصْ بِخَبْرِهِ ذَلِكَ، أَنَّهُ عَلَّمَهُ مِنَ الْبَيَانِ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ، بَلْ عَمَّ فَقَالَ: عَلَّمَهُ الْبَيَانَ، فَهُوَ كَمَا عَمَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ". وقال ابن عطية "و: الْبَيَانُ النُّطْقُ وَالْفَهْمُ وَالْإِبَانَةُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِ قَالِهِ ابْنُ زَيْدٍ وَالْجُمْهُورُ، وَذَلِكَ هُوَ فَضْلُ الْإِنْسَانِ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ بَيَانُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالشَّرَائِعِ، وَهَذَا جُزْءٌ مِنْ «الْبَيَانِ» الْعَامِّ". ورجح ابن كثير مستنداً إلى السياق القول الاول، وعلل ذلك بقوله: "لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الخلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها".

أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته ، ويتميز به عن سائر الحيوان ، قال البيضاوي : والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان ، حثا على شكره ، وتنبهها على تقصيرهم فيه ، وإنما قدم (تعليم القرآن) على (خلق الإنسان) ، لأنه أصل النعم الدينية ، فقدم الأهم.

وقال ابو حيان " ولما عدّد نعمه تعالى ، بدأ من نعمه بما هو أعلى رتبها ، وهو تعليم القرآن ، إذ هو عماد الدين ونجاة من استمسك به .

ولما ذكر تعليم القرآن ولم يذكر المعلم ، ذكره بعد في قوله : {خَلَقَ الْإِنْسَانَ} ، ليعلم أنه المقصود بالتعليم . ولما كان خلقه من أجل الدين وتعليمه القرآن ، كان كالسبب في خلقه تقدّم على خلقه . ثم ذكر تعالى الوصف الذي يتميز به الإنسان من المنطق المفصح عن الضمير ، والذي به يمكن قبول التعليم ، وهو البيان . ألا ترى أن الأخرس لا يمكن أن يتعلم شيئاً مما يدرك بالنطق ؟ وعلم متعدية إلى اثنين ، حذف أولهما لدلالة المعنى عليه ، وهو جبريل ، أو محمد عليهما الصلاة والسلام ، أو الإنسان ، أقوال . وتوهم أبو عبد الله الرازي أن الحذف هو المفعول الثاني ، قال : فإن قيل : لم ترك المفعول الثاني ؟ وأجاب بأن النعمة في التعليم ، لا في تعليم شخص دون شخص ، كما يقال : فلان يطعم الطعام ، إشارة إلى كرمه ، ولا يبين من يطعمه . انتهى .

...ومن قال : الإنسان آدم ، فالبيان أسماء كل شيء ، أو التكلم بلغات كثيرة أفضلها العربية ، أو الكلام بعد أن خلقه ، أو علم الدنيا والآخرة ، أو الاسم الأعظم الذي علم به كل شيء .

وقال ابن عثيمين " {البيان} ، أي: ما يبين به عما في قلبه، وأيضاً ما يستبين به عند المخاطبة، فهنا بيانان: البيان الأول من المتكلم، والبيان الثاني من المخاطب، فالبيان من المتكلم يعني التعبير عما في قلبه، ويكون باللسان نطقاً، ويكون بالبيان كتابة، فعندما يكون في قلبك شيء تريد أن تخبر به، تارة تخبر به بالنطق، وتارة بالكتابة، كلاهما داخل في قوله {علمه البيان}، وأيضاً {علمه البيان} كيف يستبين الشيء وذلك بالنسبة للمخاطب يعلم ويعرف وما يقول صاحبه، ولو شاء الله تعالى لأسمع المخاطب الصوت دون أن يفهم المعنى فالبيان سواء من المتكلم، أو من المخاطب كلاهما منة من الله - عز وجل - فهذه ثلاث نعم: {علم القراء خلق الإنسان علمه البيان} ."

وقال العدوي " قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى امتن علينا بتعليمنا البيان بنوعيه كما ذكرتم، وكما أسلفنا ثم أنواع آخر من أنواع البيان كالإشارات والناظرات، لكنها ليست بتلك الشهرة، إذ كتاب الله يذكر الغالب الأشهر. فإذا قال قائل: إن الله امتن علينا بتعليمنا البيان، كما امتن على عيسى صلى الله عليه وسلم بقوله: { اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ } [المائدة: ١١٠]، فإذا كانت هذه نعماً فسؤال يطرح: لم لم يعلمها رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ بل قال الله في شأنه: { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ } [الأعراف: ١٥٧]؟! فلماذا لم يمتن الله على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بتعليمه البيان بالقلم؟! العلة من ذلك ظهرت في قوله تعالى: { وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِارْتَابِ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } [العنكبوت: ٤٨-٤٩] .

الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتعلم البيان بالقلم لعله ألا وهي: دفع الشكوك عن الذين كانوا يزعمون أن بشراً يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما نص على ذلك في كتاب الله بقول الله سبحانه: { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } [النحل: ١٠٣] .

وقال الطاهر بن عاشور " وفيه من التبيكيت ما علمته آنفاً ، ووجهه أنهم لم يشكروه على نعمة البيان إذ صرفوا جزءاً كبيراً من بياهم فيما يلهيهم عن إفراذ الله بالعبادة وفيما ينازعون به من يدعوههم إلى الهدى ."

وقال الرازي " ما الفرق بين هذه السورة وسورة العلق ، حيث قال هناك : { اَفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } (العلق : ١) ثم قال : { وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } (العلق : ٣ ، ٤) فقدم الخلق على التعليم ؟

نقول : في تلك السورة لم يصرح بتعليم القرآن فهو كالتعليم الذي ذكره في هذه السورة بقوله : { عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } بعد قوله : { خَلَقَ الْإِنْسَانَ } .

قوله تعالى { الشمس والقمر بحسبان }

أقوال : الأول : أنهما بحسبان، ومنازل لهما يجريان ولا يعدوانها .

أخرج الفرياني وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله {الشمس والقمر بحسبان} قال: بحساب ومنازل يرسلان

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس رضي الله عنه {الشمس والقمر بحسبان} قال: يجريان بحساب وقال ابن زيد: لولا الليل والنهار لم يدرك أحد كيف يحسب شيئاً يريد من مقادير الزمان. الثاني: أنهما يجريان بقدر .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي مالك رضي الله عنه {الشمس والقمر بحسبان} قال: عليهما حساب وأجل كأجل الناس فإذا جاء أجلهما هلكا

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاک رضي الله عنه {الشمس والقمر بحسبان} قال: بقدر يجريان. الثالث: أنهما يدوران في مثل قطب الرحي.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه {الشمس والقمر بحسبان} قال: يدوران في مثل قطب الرحي.

وقد رجح ابن جرير مستنداً إلى اللغة -القول الأول، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: الشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل؛ لأنّ الحسبان مصدر من قول القائل: حسبته حساباً وحسباناً، مثل قولهم: كفرته كفراً، وغفرته غفراناً، وقد قيل: إنه جمع حساب، كما الشهبان: جمع شهاب وعلق ابن تيمية على القول الثالث، فقال: " فهذا مما لا خلاف فيه، بل قد دلّ الكتاب والسنة وأجمع علماء الأمة على مثل ما عليه أهل المعرفة من أهل الحساب من أنّ الأفلاك مستديرة لا مُسطحة".

وقال ابو حيان " وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ تَعْلِيمِهِ الْبَيَانِ، ذَكَرَ مَا أَمْتَنَ بِهِ مِنْ وُجُودِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ لِلْإِنْسَانِ، إِذْ هُمَا يَجْرِيَانِ عَلَى حِسَابٍ مَعْلُومٍ وَتَقْدِيرٍ سَوِيٍّ فِي بُرُوجِهِمَا وَمَنَازِلِهِمَا . وَالْحُسْبَانُ مُصَدَّرٌ كَالْغُفْرَانِ، وَهُوَ بِمَعْنَى الْحِسَابِ، قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: جَمْعُ حِسَابٍ، كَشِهَابٍ وَشُهْبَانٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو مَالِكٍ وَقَتَادَةُ: لُهُمَا فِي طُلُوعِهِمَا وَغُرُوبِهِمَا الْبُرُوجُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ حُسْبَانَاتٌ شَتَّى. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَوْلَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَدْرِ أَحَدٌ كَيْفَ يَحْسَبُ شَيْئًا يُرِيدُ مِنْ مَقَادِيرِ الزَّمَانِ.

وقال مجاهد: الحُسْبَانُ: الْفَلَكَ الْمُسْتَدِيرُ، شَبَّهَهُ بِحُسْبَانِ الرَّحَى، وَهُوَ الْعُودُ الْمُسْتَدِيرُ الَّذِي بِاسْتِدَارَتِهِ تَسْتَدِيرُ الْمِطْحَنَةُ .

وقال ابن كثير : أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن ، لا يختلف ولا يضطرب.

وقال ابن عثيمين " أي: بحساب دقيق معلوم متقن منتظم أشد الانتظام، يجريان كما أمرهما الله - عز وجل - ولم تتغير الشمس والقمر منذ خلقهما الله عز وجل إلى أن يفنيهما يسيران على خط واحد، كما أمرهما الله، وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه، وكمال علمه أن تكون هذه الأجرام العظيمة تسير سيراً منتظماً، لا تتغير على مدى السنين الطوال .

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير " الشمس تجري لمستقر لها والقمر كذلك يجري، وكل في فلكه، فلا يتقدم أحدهما على الآخر بنظام بديع مرتب، لا يختل إلا إذا اختل حال العالم {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [سورة يس: ٤٠] أمور مرتبة بدقة عجيبة متتابعة تتابعاً بديعاً، فالشمس آية النهار، والقمر آية الليل، محيت آية الليل فصار فيه الظلام، وبقيت آية النهار مبصرة فصار فيها الضوء والإشراق، ولذا يقولون: في الصباح ما يغني عن المصباح، إذا طلع الصباح انتهى، وفي الليالي المقمرة شيء من الضوء لكنه إشراق بدون إحراق، ضوء ضعيف بخلاف ضوء الشمس، وهما آيتان من آيات الله، أجراها على هذا النظام البديع، ولا يتغيران ولا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، بل هما آيتان يخوف الله بهما عباده، وفائدتهما والحكمة من خلقهما لا تخفى على أحد، كما هي حكمة التباين بين الليل والنهار، يعني لو تصورنا أن الكون كله مظلم، كله ليل سرمدي، أو نهار سرمدي اختل النظام، لا يتم المعاش على هذه الأرض على الوجه المطلوب، لا تدري اليوم من الأمس من الغد، معاملات الناس كلهم وأمورهم كلها تضطرب، لكن جعل هاتين الآيتين مما يتميز به الليل والنهار .

وَقَوْلُهُ: { وَالتَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } فِي النِّجْمِ قَوْلَانِ :

أحدهما : نجم السماء ، وهو موحد والمراد به جميع النجوم.

عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح -﴿والتَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، قال: التَّجْمُ نَجْمُ السَّمَاءِ، والشَّجَرُ الشَّجَرَةُ، يسجد بُكْرَةً وَعَشِيَّةً (تفسير مجاهد وابن جرير). ومثله عن قتادة

الثاني : أن النجم النبات الذي قد نجم في الأرض وانبسط فيها ، ليس له ساق ، والشجر ما كان على ساق ، قاله ابن عباس .

عن عبد الله بن عباس -من طريق علي -﴿والتَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، قال: التَّجْمُ: ما انبسط على الأرض. والشَّجَرُ: ما كان على ساق (تفسير ابن جرير وابن أبي حاتم). ومثله عن سعيد بن جبيرة وأبي رزين (مسعود بن مالك الأسدي) وإسماعيل السُّدِّيَّ ومحمد بن السائب الكلبي ومقاتل بن سليمان وسفيان الثوري.

وهو ما رجحه ابن جرير فقال " وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: عني بالنجم: ما نجم من الأرض من نَبْتٍ. لعطف الشَّجَر عليه، فكان بأن يكون معناه لذلك: ما قام على ساق وما لا يقوم على ساق يسجدان لله، بمعنى: أنه تسجد له الأشياء كلّها المختلفة الهيئات من خَلْقِهِ؛ أشبه وأولى بمعنى الكلام من غيره .

ورجح ابن كثير الاول فقال " وهذا القول هو الأظهر -والله أعلم-؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي

السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجلال والشجر والدواب وكثير من الناس﴾ [الحج: ١٨] .

وهذا لا يمكن ان يراد به الا النجم الذي في السماء والقرآن يفسر بعضه بعضا ولم يرد في القرآن موضع يُذكر في سجود النبات بالمعنى الثاني .

وفي سجودهما خمسة أقاويل :

أحدها : هو سجود ظلهما ، قاله الضحاك وسعيد بن جبير وإبي رزين .

الثاني : هو ما فيهما من الصنعة والقدرة التي توجب السجود والخضوع ، قاله ابن بحر . ففسر السجود بامر معنوي .

الثالث : أن سجودهما دوران الظل معهما ، كما قال تعالى : { يتفياً ظلاله } ، قاله الزجاج .

الرابع : أن سجود النجم أفعاله ، وسجود الشجر إمكان الإجتناء لثمارها .

الخامس : أن سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا أشرقت ثم يميلان معها إذا انكسر الفيء ، قاله الفراء .

وقال الصابوني : " أي والنجم والشجر ينقادان للرحمن فيما يريد منهما ، هذا بالتنقل بالبروج ، وذاك بإخراج الثمار))

الأظهر أن المراد بالنجم هو النجم الذي في السماء ، وهو قول مجاهد واختيار ابن كثير ، لأنه هو المعروف في اللغة ،

وروي عن ابن عباس أن المراد بالنجم هو كل نبات ينجم من الأرض وليس له ساق ، لمقابلته بالشجر الذي له ساق ،

واختار هذا القول ابن جرير ، والأول أظهر ، والله أعلم .

وقال ابن عثيمين " النجم اسم جنس ، والمراد به النجوم تسجد لله - عز وجل - فهذه النجوم العليا التي نشاهدها في

السماء تسجد لله - عز وجل - سجوداً حقيقياً ، لكننا لا نعلم كيفية ، لأن هذا من الأمور التي لا تدركها العقول ،

والشجر يسجد لله عز وجل سجوداً حقيقياً ، لكن لا ندري كيف ذلك ، والله على كل شيء قدير ، وانظر إلى الأشجار إذا

طلعت الشمس تتجه أوراقها إلى الشمس تشاهدها بعينك ، وكلما ارتفعت ، ارتفعت الأشجار ، وإذا مالت للغروب مالت ،

لكن هذا ليس هو السجود ، إنما السجود حقيقة لا يعلم ، كما قال - عز وجل - : { تسبح له السماوات السبع والأرض

ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً } فالنجوم كلها تسجد لله ،

والأشجار كلها تسجد لله - عز وجل - قال الله تعالى : { ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض

والشمس والقمر والنجوم والجال والشجر والدواب وكثير من الناس } ويقابله ، { وكثير حق عليه العذاب } فلا يسجد -

والعياذ بالله .

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير " وسجود كل شيء بحسبه ؛ لأنه قد يقول قائل : أنا والله ما رأيت عمري كله أنا فلاح

منذ سبعين سنة ما رأيت شجرة ساجدة ، لكن أنت لا تحس بمثل هذا ، لا تحس بمثل هذا ، لكن { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

بِحَمْدِهِ } [(٤٤) سورة الإسراء] تسبح تذكّر الله على حسب حالها ، إما بلسان المقال والقدرة الإلهية صالحة لمثل هذا ، بل

أعظم منه { قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [(١١) سورة فصلت] أو بلسان الحال بعدم امتناعها مما يطلب منها ، ولذا يقول :

{ يَسْجُدَانِ } [(٦) سورة الرحمن] " يخضعان لما يراد منهما " هل تمتنع الشجرة من الإثمار المراد منها؟ نعم قد يوجد قد لا

يوجد السبب ، وقد يوجد السبب ويوجد مانع ، لكن إذا وجد السبب وانتفى المانع فالأثر حاصل بإذن الله - جل وعلا - ،

فيخضعان لما يراد منهما ، يراد من الشجر الثمرة ، يراد من الشجرة الظل ، يراد من النجم كذلك ، يراد من النجم على

القول بأنه نجوم السماء ما خلقت من أجله من الحكم الثلاث المعروفة : زينة للسماء ، وهداية للناس ، ورجوم للشياطين ،

هل يؤمر النجم بأن يرحم شيطان فيتأخر؟ لا .

وقال العدوي بعد ترجيحه ان المراد بالنجم القول الثاني " وأصل تسمية النجم مأخوذة من النجوم وهو الظهور، نجم النبات عن نزول المطر، أي: ظهر بسبب نزول المطر، نجمت هذه المشكلة عن شيء، أو نجم هذا الشيء عن مشكلة حدثت أي ظهر.

أثبتت الآية الكريمة أن الشجر يسجد، وأن النجم يسجد صراحة، فالله يقول: { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ { [الرحمن: ٦]، وقد قال الله جل ذكره: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ { [الحج: ١٨]، وقال سبحانه: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ { [الإسراء: ٤٤].

وقد حنّ الجذع لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وثم أدلة أخر في الجمادات وغيرها قد تقدمت، قال صلوات الله وسلامه عليه: (إني أعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ، إني أعرفه الآن).

وقال الله سبحانه في شأن الأحجار: { وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ { [البقرة: ٧٤].

قال الله سبحانه: { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ { [الرحمن: ٧]

للسلف في المراد بالميزان قولان:

الأول: أنه العدل .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ووضع الميزان قال : العدل.

الثاني: أنه الميزان المعروف بين الناس.

قال الحسن البصري والضحاك بن مزاحم وقتادة بن دعامة: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ هو الذي يُوزَن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض. (تفسير الثعلبي والبعوي). ففسّر مرة بالعدل كما قال تعالى { وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط } ومرة فُسِّرَ بآلته التي يتحقق بها وهو الميزان المعروف ويمكن ان يراد بالآية كلا الامرين العدل وآلته وهو اختيار ابن القيم .

قال الطبري " يَقُولُ: وَوَضَعَ الْعَدْلَ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ وَذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ «وَحَفَظَ الْمِيزَانَ» وَالْحَفَظُ وَالْوَضْعُ: مُتَقَارِبَا الْمَعْنَى فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَبَنَحُو الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ " .

قال ابو حيان " وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا: أَيَّ خَلَقَهَا مَرْفُوعَةً، حَيْثُ جَعَلَهَا مَصْدَرَ قَضَايَاهُ وَمَسْكَنَ مَلَائِكَتِهِ الَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، وَنَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى عِظَمِ شَأْنِهِ وَمَلَكِهِ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ:

وَالسَّمَاءَ، بِالنَّصْبِ عَلَى الْإِشْتِعَالِ، رُوعِي مُشَاكَلَةَ الْجُمْلَةِ الَّتِي تَلِيهِ وَهِيَ يَسْجُدَانِ.

وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ: وَالسَّمَاءَ بِالرَّفْعِ، رَاعَى مُشَاكَلَةَ الْجُمْلَةِ الْإِبْدَائِيَّةِ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ:

وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، فِعْلاً مَاضِياً نَاصِباً الْمِيزَانَ، أَيَّ أَقَرَّهُ وَأَنْبَتَهُ. وَقَرَأَ إِبْرَاهِيمُ: وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، بِالْحَفْظِ وَإِسْكَانِ الضَّادِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كُلُّ مَا يُوزَنُ بِهِ الْأَشْيَاءُ وَتُعَرَفُ مَقَادِيرُهَا، وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْأَلَاتُ، قَالَ مَعْنَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، جَعَلَهُ

تَعَالَى حَاكِمًا بِالسَّوِيَّةِ فِي الْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالطَّبْرِيُّ وَالْأَكْثَرُونَ: الْمِيزَانُ: الْعَدْلُ، وَتَكُونُ الْأَلَاتُ مِنْ بَعْضِ مَا يَنْدَرُجُ فِي الْعَدْلِ " .

قال ابن عطية " والميزان المعروف جزء من «الميزان» الذي يعبر به عن العدل. ويظهر عندي أن قوله: وَضَعَ الْمِيزَانَ يريد به العدل " .

أي والسماء خلقها عالية محكمة البناء ، رفيعة القدر والشأن ، وأمر بالميزان عند الأخذ والإعطاء لينال الإنسان حقه وافيًا

قوله تعالى { أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ } أي: أن لا تجوروا وأن لا تريدوا، فالطغيان تجاوز الحد بصفة عامة. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله { أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ } قَالَ: اغْدِلْ يَا ابْنَ آدَمَ كَمَا تَحِبُّ أَنْ يَعْدَلَ عَلَيْكَ وَأَوْفَ كَمَا تَحِبُّ أَنْ يُؤْفَى لَكَ فَإِنَّ الْعَدْلَ يَصْلِحُ النَّاسَ .

قال مقاتل بن سليمان :﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾، يعني: أَلَا تَظْلِمُوا فِي الْمِيزَانِ (تفسير مقاتل).

وقال ابن الجوزي " اذكر الزجاج في أن وجهين أحدهما أنها بمعنى اللام والمعنى لئلا تظفوا والثاني أنها للتفسير فتكون لا للنهي والمعنى أي لا تظفوا أي لا تجاوزوا العدل " .

وقال ابو حيان " أَيْ لِأَنَّ لَا تَطْغَوْا، فَتَطْغَوْا مَنْصُوبٌ بِأَنْ. وَقَالَ الرَّخْشَرِيُّ: أَوْ هِيَ أَنْ الْمُفْسَّرَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ أَنْ مُفْسَّرَةً، فَيَكُونُ تَطْغَوْا جَزْمًا بِالنَّهْيِ. انْتَهَى، وَلَا يَجُوزُ مَا قَالَاهُ مَنْ أَنَّ أَنْ مُفْسَّرَةٌ، لِأَنَّهُ قَاتَ أَحَدَ شَرْطَيْهَا، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَا قَبْلَهَا جُمْلَةً فِيهَا مَعْنَى الْقَوْلِ " .

وقال ابن عطية " وقوله: أَلَا تَطْغَوْا نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان. وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس " .

فقوله تعالى { وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ } أي اجعلوا الوزن مستقيما ، بالعدل والإنصاف { وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ } أي لا تطففوا الوزن ولا تنقصوه ، كقوله تعالى : { وَبَلِّغُوا لِلْمُطَفِّينَ }

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى رجلا يزن قد أرجح فقال: أَقِمِ اللِّسَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ}

وقال أبو الدرداء :﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أقيموا لسان الميزان بالعدل(تفسير الثعلبي والبغوي).

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ} قَالَ: اللِّسَانُ

وأخرج ابن جرير عن أبي المغيرة قال: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، يَقُولُ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ: " يَا مَعْشَرَ الْمَوَالِي إِنَّكُمْ قَدْ بُلِيتُمْ بِأَمْرَيْنِ أَهْلِكَ فِيهِمَا أُمْتَانِ مِنَ الْأُمَمِ: الْمِكْيَالُ، وَالْمِيزَانُ " .

وأخرج أيضا عن مغيرة قال: رَأَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَجُلًا يَزِنُ قَدْ أَرْجَحَ، فَقَالَ: " أَقِمِ اللِّسَانَ، أَقِمِ اللِّسَانَ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٩] " .

واخرج ايضا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٩] قَالَ: «نَقْصُهُ، إِذَا نَقَصَهُ فَقَدْ خَسَرَهُ تَخْسِيرُهُ نَقْصُهُ»

قال القرطبي " (ولا تحسروا الميزان) ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن، وهذا كقوله: (ولا تنقصوا المكيال والميزان) .

قال ابو حيان " قَرَأَ الْجُمْهُورُ: وَلَا تُخْسِرُوا، مِنْ أَخْسَرَ: أَيُّ أَفْسَدَ وَنَقَصَ، كَقَوْلِهِ: {وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} أَيُّ يَنْقُصُونَ. وَبِلَالُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: تَخْسَرُ بَفَتْحِ التَّاءِ، يُقَالُ: خَسِرَ يَخْسِرُ، وَأَخْسَرَ يُخْسِرُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، كَجَبَرٍ وَأَجْبَرَ. وَحَكِي ابْنُ جَنِّي وَصَاحِبُ اللَّوَامِجِ، عَنْ بِلَالٍ: فَتَحَ التَّاءِ وَالسِّينِ مُضَارِعُ خَسِرَ بِكَسْرِ السِّينِ، وَخَرَجَهَا الرَّخْشَرِيُّ عَلَى أَنَّ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: فِي الْمِيزَانِ، فَحَذَفَ الْجَارَّ وَنَصَبَ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا التَّخْرِيجِ. أَلَا تَرَى أَنَّ خَسِرَ جَاءَ مُتَعَدِّيًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} ، {وَخَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ} { وَقرئَ أَيْضًا: تُخْسِرُوا، بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ السِّينِ. لِمَا مُنِعَ مِنَ الزِّيَادَةِ، وَهِيَ الطُّغْيَانُ، هَمَى عَنِ الْخُسْرَانِ الَّذِي هُوَ نُقْصَانٌ، وَكَرَّرَ لَفْظَ الْمِيزَانِ، تَشْدِيدًا لِلتَّوَصِيَةِ بِهِ وَتَقْوِيَةً لِلأَمْرِ بِاسْتِعْمَالِهِ وَالحَثِّ عَلَيْهِ .

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير " والوزن كما يكون بالمحسوسات يكون أيضاً في المعاني، والعدل كما يطلب في وزن المحسوسات يطلب أيضاً في وزن المعاني، لا بد من العدل، العلماء حينما تكلموا في الرواة جرحاً وتعديلاً اهتموا بمسألة العدل، لا يجوز أن يجرح الراوي بأكثر مما فيه، كما أنه لا يجوز أن يعطى من الأوصاف والثناء ما يغزر بقبول خبره، وهو مما لا يقبل خبره، يعني لا بد أن يوزن الرجال بالقسط، وأعني بالرجال من يحتاج إلى وزهم، من يحتاج إلى وزهم، السنة لا تثبت إلا بالأسانيد، والأسانيد مشتملة على رواية، وكل راوٍ من الرواة له منزلة عند أهل العلم، لا يجوز أن ينزل عنها بحيث يرد خبره، ولا يجوز أن يرفع من شأنه بحيث يقبل خبره، وهو في الأصل لا يقبل خبره، لا بد من العدل، لا بد من الإنصاف، تجدد بعض الناس إذا تكلم في بعض الأشخاص نسي الحسنات، وبعضهم إذا تكلم نسي السيئات، أولاً: الكلام في الناس وفي أعراضهم ينبغي أن يتقيه، أن يتقيه المسلم المحتجري الحريص على براءة ذمته إلا بقدر الحاجة، يعني إن احتيج إليه، جاء شخص يسألك يستشيرك يقول: تقدم لنا فلان لخطبة البنت مثلاً تشير عليه، إذا كان فيه ما يمدح بسببه تمدح، وإذا كان فيه ما يذم بسببه تذم، ويكون هدفك بذل النصح لصاحبك، لا يكون هدفك التفكه بعرض فلان أو علان، ويكون بقدر الحاجة، وما زاد عن الحاجة يعود إلى الأصل وهو المنع، وأعراض المسلمين حفرة من حفر النار، يقول ابن دقيق العيد: "وقف على شفيرها العلماء والحكام" فالعلماء يحتاجون إلى الكلام في الناس، الحكام يحتاجون إلى الكلام في الناس، فلا تجوز الزيادة عن الحاجة، وأن يكون الكلام بالعدل بالقسط، لا يزداد في حق فلان ولا .. (ينقص) ؛ لأنه لو زدت في حقه ورفعته فوق شأنه إن كان راوياً جعلت الناس يقبلون خبره، وهو في الحقيقة خبره غير مقبول، هذا ضرر عظيم، وإن نقصت من شأنه جعلت الناس يردون حديثه، وقد يكون حديثه مقبول، فأنت غررت بهم، وإن كان مما يسأل عنه من أجل ولاية ونحوها إن رفعت من شأنه غششت به الأمة، وإن حططت من شأنه ظلمته وظلمت غيره، فلا بد من العدل، والإنسان ما دام في عافية ما علق هذا الأمر به ولا أنيط به فعليه أن يحرص على إبراء ذمته؛ لأن العدل في

مثل هذه الأمور فيه صعوبة، يعني إذا سئلت عن شخص قد تمده اليوم وتذمه غداً، إما أن يكون قد ظهر لك من أمره ما لم يظهر، أو يكون تعامله معك في هذا اليوم تغير، مع أن العدل مطلوب سواءً تعامل معك على وجه حسن ترضاه ويروق لك، أو خلاف ذلك، فنعتني بهذا ونهتّم به، والإنسان لا يأتي يوم القيامة مفلساً، يجمع الحسنات من الصيام والصلاة والزكاة والبر وغيرها وطلب العلم والتعليم ثم بعد ذلك يأتي يوزع هذه الحسنات على غيره، فيكون مفلساً، كما جاء في الحديث الصحيح، يحرص على أن يحافظ على ما اكتسبه، والوزن مثل ما ذكرنا كما يكون في المحسوسات يكون أيضاً في المعنويات، فلا بد من العدل، ولا بد من القسط .

قوله تعالى { والأرض وضعها للأنام }

وفي الأنام ثلاثة اقوال

الاول : الانام الناس .

أخرج الفرّايّ وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله {والأرض وضعها للأنام} قال: للناس . قال الطاهر بن عاشور " وسياق الآية يرجح أن المراد به الإنسان ، لأنه في مقام الامتنان والاعتناء بالبشر كقوله : { هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً } [البقرة : ٢٩] " .

الثاني : كل ما فيه روح .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما {والأرض وضعها للأنام} قال: للخلق وأخرج الطسّي والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله {وضعها للأنام} قال: الأنام الخلق وهم ألف أمة ستّمائة في البحر وأربعمائة في البر

قال: وهل تعرف العرب ذلك قال: نعم أما سمعت ليبدأ وهو يقول: فإن تسألينا ممن نحن فإننا عصافير من هذا الأنام

المسخر وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله {وضعها للأنام} قال: كل شيء فيه روح

وأخرج ابن المنذر عن الضحّاك رضي الله عنه {والأرض وضعها للأنام} قال: كل شيء يدب على الأرض .

وقال ابن كثير : " أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدّها، وأرسلها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقرّ لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألوانهم، في سائر أقطارها وأرجائها. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الأنام: الخلق " .

الثالث : الانس والجن .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله {والأرض وضعها للأنام} قال: للخلق الجن والإنس .

قال ابو حيان " قرأ الجمهور: والأرض بالنصب وأبو السّمّال: بالرفع " .

وقال الرازي : " وقوله تعالى : {للأنام} يدل على الاختصاص ، فإن اللام لعود النفع ... فقال {للأنام} لكثرة انتفاع

الأنام بها ، إذا قلنا إن الأنام هو الإنسان ، وإن قلنا إنه الخلق فالخلق يذكر ويراد به الإنسان في كثير من المواضع " .

وقال الشيخ ابن عثيمين " يعني: أن من نعم الله - عز وجل - أن الله وضع الأرض للأنام أي: أنزلها بالنسبة للسماء، والأنام هم الخلق، ففيها الإنس، وفيها الجن، وفيها الملائكة، تنزل بأمر الله - عز وجل - من السماء، وإن كان مقر الملائكة في السماء لكن ينزلون إلى الأرض، مثل الملكين اللذين عن اليمين وعن الشمال قعيد، والملائكة الذين يحفظون من أمر الله المعقبات، والملائكة الذين ينزلون في ليلة القدر وغير ذلك ".

وَقَوْلُهُ: { فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ } [الرحمن: ١١]

{ فِيهَا فَاكِهَةٌ } ، يعني: أنواع الفواكه، قال ابن كيسان: يعني ما يتفكهون به من النعم التي لا تحصى، قال الطاهر بن عاشور " والفاكهة : اسم لما يؤكل تفكهاً لا قوتاً مشتقة من فكّه كفرح ، إذا طابت نفسه بالحديث والضحك ، قال تعالى : { فظلمتم تفكّهون } [الواقعة : ٦٥] لأن أكل ما يلذ للأكل وليس بضروري له إنما يكون في حال الانبساط .

والفاكهة : مثل الثمار والنخول من لوز وجوز وفستق .

وعطف على الفاكهة النخل وهو شجر التمر ، وهو أهم شجر الفاكهة عند العرب الذين نزل القرآن فيهم ، وهو يثمر أصنافاً من الفاكهة من رطب وبُسْر ومن تمر وهو فاكهة وقوت " .

وَعَنْ ابْنِ عُمرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ ثُمَّ قَالُوا حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هِيَ النَّخْلَةُ . متفق عليه . فشبه المؤمن بالنخلة لكثرة منافعها .

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة : " تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك . وهي تشبه المؤمن من وجوه كثيرة .

أحدها : ثبات أصلها في الأرض، واستقراره فيها، وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

الثاني : طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها . كذلك المؤمن طيب الكلام . طيب العمل . فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

الثالث : دوام لباسها وزينتها، فلا يسقط عنها صيفا، ولا شتاء . كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى .

الرابع : سهولة تناول ثمرتها، وتيسره . أمّا قصيرها، فلا يُحَوِّجُ المتناول أن يرقاها . وأمّا باسِقُها، فصعوده سهل بالنسبة إلى

صعود الشجر الطوال، وغيرها، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها . وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغرّ، ولا باللئيم .

الخامس : أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم، فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة، ويابسها يكون قُوتاً وأدماً وفاكهة، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى، ويدخل في الأدوية، والأشربة، وعموم المنفعة به وبالغلب فوق كل الثمار .

الوجه السادس : أن النخلة أصبر الشجر على الرياح، والجهد وغيرها من الدوح العظام. تميلها الرياح تارة، وتقلعها تارة، وتقصف أفنانها. ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة. فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا ترعزعه الرياح. السابع : أن النخلة كلها منفعة، لا يسقط منها شيء بغير منفعة. فثمرها منفعة، وجذعها فيه من المنافع مالا يحهل، للأبنية والسقوف، وغير ذلك. وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب، ويستتر به الفرج والخلل، وخوصها يتخذ منه المكاتل، والزنايل، وأنواع الآنية، والحُصُر، وغيرها، وليفها وكرها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس.

وقد طابق بعض الناس هذه المنافع، وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها. فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحِدَّة على أعداء الله، وأهل الفجور، فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرُّطْبِ خلاوة ولينا : أشداء على الكفار رحماء بينهم.

الثامن : أنها كلما أطال عمرها. ازداد خيرها، وجاد ثمرها، وكذلك المؤمن، إذا طال عمره ازداد خيره، وحسن عمله.

التاسع : أن قلبها من أطيب القلوب، وأحلاه. وهذا أمر خُصَّت به دون سائر الشجر. وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب.

العاشر : أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً. بل إن تعطلت منها منفعة، ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة، لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكرها منافع، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط. إن أجذب منه جانب من الخير، أخصب منه جانب، فلا يزال خيره مأمولاً، وشره مأموناً. ورد في الترمذي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم : "خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره".

وقال الرازي " والتذكير للتكثير (يعني : فاكهة) ، أي كثيرة كما يقال لفلان مال أي عظيم ، وقد ذكرنا وجه دلالة التذكير على التعظيم وهو أن القائل : كأنه يشير إلى أنه عظيم لا يحيط به معرفة كل أحد فتذكيره إشارة إلى أنه خارج عن أن يعرف كنهه.

وقوله تعالى : {وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ} إشارة إلى النوع الآخر من الأشجار ، لأن الأشجار المثمرة أفضل الأشجار وهي منقسمة إلى أشجار ثمار هي فواكه لا يقتات بها وإلى أشجار ثمار هي قوت وقد يتفكه بها ، كما أن الفاكهة قد يقتات بها ، فإن الجائع إذا لم يجد غير الفواكه يتقوت بها ويأكل غير متفكه بها .

وقال الشيخ عبدالكريم الحضير " الفاكهة كثيرة الأشكال، كثيرة الأجناس، كثيرة الأنواع، النخل شيء واحد ثمره التمر، والفاكهة متنوعة، فالتذكير هنا للتعميم، وأما بالنسبة للنخل فالمراد به النخل المعهود المثمر للتمر فقط .

واما الأكمام ففيها اقول :

الاول : الأوعية التي يكون فيها الثمر لأن ثمر النخل يكون في غلاف ما لم ينشق، واحدها كِمٌ، وكل ما ستر شيئاً فهو كم وكمة، ومنه كم القميص، ويقال للقلنسوة كُمَّة.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله {وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ} قَالَ : أوعية الطلع .

وقال مقاتل بن سليمان : ﴿فيها﴾ يعني: في الأرض ﴿فاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ يعني: ذات الأجواف، مثل قوله : ﴿وما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فصلت: ٤٧]، يعني: الكُفْرَى مُوقَرٌ طَلْعُهَا. والكُفْرَى -بالضم وتشديد الراء وفتح الفاء وضمها مقصور-: هو وعاء الطلع وقشره الأعلى، وكذلك كافوره. النهاية (كفر).

قال الطاهر بن عاشور " ووصف النخل ب { ذات الأكمام } وصف للتحسين فهو اعتبار بأطوار ثمر النخل ، وامتنان بجماله وحسنه كقوله تعالى : { ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون } [النحل : ٦] فامتَنَ بمنافعها وبحسن منظرها .

و { الأكمام } : جمع كَم بكسر الكاف وهو وعاء ثمر النخلة ويقال له : الكُفْرَى ، فليست الأكمام مما ينتفع به فتعين أن ذكرها مع النخل للتحسين .
وقال الرازي : " فائدة ذكرها ؟

نقول : الإشارة إلى سهولة جمعها والانتفاع بها فإن النخلة شجرة عظيمة لا يمكن هزها لتسقط منها الثمرة فلا بد من قطف الشجرة فلو كان مثل الجميز الذي يقال : إنه يخرج من الشجرة متفرقاً واحدة واحدة لصعب قطفها فقال : {ذَاتُ الْأَكْمَامِ} أي يكون في كم شيء كثير إذا أخذ عنقود واحد منه كفى رجلاً واثنين كعناقيد العنب ، فانظر إليها فلو كان العنب حباًتها في الأشجار متفرقة كالجميز والزعرور لم يمكن جمعه بالهز متى أريد جمعه ، فخلقه الله تعالى عناقيد مجتمعة ، كذلك الرطب فكونها {ذَاتُ الْأَكْمَامِ} من جملة إتمام الإنعام .
والمعنى الثاني : انه الليف قال الضحاك : "ذات الأكمام" أي ذات الغلف. وقال الحسن: أكمامها: ليفها. وقال قتادة قال: أكمامها: ليفها.

ونقل ابنُ عطية عن قتادة قوله: «أكمام النخل: رقاها .» ثم علّق بقوله: «والكَم من النبات: كل ما التفَّ على شيءٍ وستره، ومنه كمائم الزهر، وبه شبه كُم الثوب.»
والثالث : هو الطلع قبل أن ينشق قاله ابن زيد .
وأفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه ، رطباً ويابساً .

اخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله : ﴿والنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾، قيل له: هو الطَّلَع؟ قال: نعم، وهو في كُمٍ منه حتى يَنْفَتَق عنه. قال: والْحَبُّ أَيْضًا في أَكْمَامٍ. وقرأ: ﴿وما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فصلت: ٤٧] .

وقد رجّح ابنُ جرير العموم، فقال : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إنّ الله وصف النخل بأنها ذات أكمام، وهي مُتَكَمِّمة في ليفها، وطلّعها مُتَكَمِّم في جُفِّه، ولم يخصّص الله الخبر عنها بتكَمِّمها في ليفها ولا تكَمِّم طلّعها في جُفِّه، بل عمّ الخبر عنها بأنها ذات أكمام، والصواب أن يقال: عنى بذلك ذات ليف، وهي به مُتَكَمِّمة وذات طَلَع هو في جُفِّه متكمم؛ فيعمّم، كما عم -جلّ ثناؤه".

قوله تعالى: { وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) }

قال البغوي " وقراءة العامة " : والحب ذو العصف والريحان " ، كلها مرفوعات بالرد على الفاكهة . وقرأ ابن عامر " والحب ذا العصف والريحان " بنصب الباء والنون وذا بالالف على معنى : خلق الإنسان وخلق هذه الأشياء . وقرأ حمزة والكسائي " والريحان " بالجر عطفا على العصف فذكر قوت الناس والأنعام " . واما الحب فقال عنه " هو البر والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه وهي العصيفة اذا يبست " .

وقال البغوي " أراد بالحب جميع الحبوب التي تحث في الأرض " .

وأما العصف ففيه أقاويل اشهرها :

أحدها : تب الزرع وورقه الذي تعصفه الريح ، قاله ابن عباس .

وعن الضَّحَّاك بن مَرْحَم -من طريق عطية بن الحارث- قال : ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ ، العصف: التبن (أخرجه ابن جرير). وهو مروي عن قتادة وعطاء الخرساني

عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ ، قال: ورق الحنطة (تفسير مجاهد). وبه قال مقاتل بن سليمان

الثاني الزرع اول ما يكون بقلا:

وعن عبد الله بن عباس -من طريق سعيد- في الآية، قال: العصف: الزرع أول ما يخرج بقلاً أخرجه ابن جرير

بنحوه، وابن أبي حاتم -كما في الفتح وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر. وهو مروي عن ابي صالح باذام

وَعَنْ سَعِيدٍ، { وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ } [الرحمن: ١٢] «الْبَقْلُ مِنَ الزَّرْعِ» (أخرجه ابن جرير).

وعن أبي مالك غَزْوَان الغفاري -من طريق إسماعيل بن أبي خالد- قال : ﴿وَالْحَبُّ﴾ الحب: أول ما يَنْبُت (أخرجه ابن جرير).

"وقال الفراء.

والعرب تقول: خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك.

وكذا في الصحاح: وعصفت الزرع أي جززته قبل أن يدرك.

وعن ابن عباس أيضا: العصف ورق الزرع الاخضر إذا قطع رؤوسه ويبس، نظيره: (فجعلهم كعصف (٢)

مأكول). (تفسير القرطبي).

الثالث : انه القشر على الحب .

عن الضَّحَّاك بن مُزَاحِم -من طريق سفيان- في الآية، قال: الحَبُّ: الحنطة والشعير. والعصف: القشر الذي يكون على الحَبِّ (أخرجه ابن جرير بنحوه، وأخرجه ابن أبي حاتم -كما في الفتح بلفظ: العصف: البر والشعير. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر).

وذهب ابن جرير إلى أن معنى: العَصْف هو: الورق الحادث من حَبِّ الشعير والبرِّ، والتَّبَن إذا يبس.
الثالث : انه الورق من كل شيء

أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد في قوله (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) قال: العصف: الورق من كل شيء.
قال: يقال للزَّرع إذا قطع: عَصَافَة، وكل ورق فهو عَصَافَة.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- قال: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ العَصْف: الورق من كل شيء. قال: يُقَالُ لِلزَّرع إذا قُطِعَ: عَصَافَة، وكلَّ ورق فهو عَصَافَة (أخرجه ابن جرير).

وقال ابن كيسان: "العصف" ورق كل شيء يخرج منه الحب، يبدو أولاً ورقاً وهو العصف ثم يكون سوقاً، ثم يحدث الله فيه أكماماً ثم يحدث في الأكمام الحب (تفسير البغوي)

قال الطاهر بن عاشور " { والحب ذو العصف } : هو الحب الذي لنباته سنابل ولها ورق وقصب فيصير تبناً ، وذلك الورق والقصب هو العصف ، أي الذي تعصفه الرياح وهذا وصف لحب الشعير والحنطة وبهما قوام حياة معظم الناس وكذلك ما أشبههما من نحو السلت والأرز .

وسمي العصف عصفاً لأن الرياح تعصفه ، أي تحركه ووصف الحب بأنه { ذو العصف } للتحسين وللتذكير بمنة جمال الزرع حين ظهوره في سنبله في حقوله نظير وصف النخل بذات الأكمام ولأن في الموصوف ووصفه أقوات البشر وحيوانهم .

وقال الشيخ عبد الكريم الخضير " {ذُو الْعَصْفِ} العصف قال: "التبن" لأن الحب له قشر، له قشر وله سنبل، كل هذا إذا استخلص الحب الباقي يكون خفيف تعصف به الريح، ولذا قال: ذو العصف، الحب له عصف، له قشور، وله تبن، وله أشياء إذا استخلص الحب الباقي تعصف به الريح، ومنهم من يقول: ذو العصف المراد به ورق الشجر إذا يبس وسقط منها عصفت به الريح، لكن إضافته للحب إضافته للحب تدل على أنه ملازم للحب، مما يتصف به الحب، الحب ذو، موصوف بكونه صاحب العصف، والفعل هنا مقصود به اسم المفعول، كالحمل بمعنى المحمول، العصف يعني المعصوف به وهو التبن وما في حكمه مما يخف للريح فتعصف به " .

ففسره المفسرون بالجزء اليابس من النبات كتفسيرهم له بالتبن، وتارة بالجزء الأخضر كقولهم الزرع اول ما ينبت بقلا والظاهر ان جميع ما تقدم يقال له عصف لان هؤلاء المنقول عنهم الخلاف من السلف اهل فصاحة ومثل هذا لا يخفى عليهم فالظاهر انهم يطلقون العصف على جميع ما تقدم ذكره والله تعالى اعلم.

وأما الريحان ففيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه الرزق .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كل ريحان في القرآن فهو الرزق.

وقاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والسدي ، والعرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله أي رزقه.

وقال مقاتل بن سليمان : ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني: الرزق. نظيرها : ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩] يعني: الرزق، بلسان

جمي () ، الذي يخرج من الحب من دقيق أو سويق أو غيره.

الثاني انه الورق قال ابن كثير : " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ : {وَالرَّيْحَانُ} يَعْنِي : الْوَرَقَ " .

ونقال القطري عن الفراء : العصف ساق الزرع، والريحان ورقه .

الثاني : أن الريحان الزرع الأخضر الذي لم يسنبل ،

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ} قَالَ : التَّبَنُّ {وَالرَّيْحَانُ} قَالَ : خَضِرَةُ الزَّرْعِ

وعن عبد الله بن عباس ، في الآية ، قال : ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ حين يستوي على سوقه ولم يُسنبَل (عزاه السيوطي إلى ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم.) .

الثالث : أنه الريحان الذي يشم .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قَالَ : العصف ورق الزرع إذا يبس والريحان ما أنبتت الأرض من الريحان الذي يشم . وقاله الحسن ، والضحاك ، وابن زيد .

قال الطاهر بن عاشور " و { الريحان } : ما له رائحة ذكية من الأزهار والحشائش وهو فعْلان من الرائحة ، وإنما سمي به ما له رائحة طيبة . وهذا اعتبار وامتنان بالنبات المودعة فيه الأطياب مثل الورد والياسمين وما يسمى بالريحان الأخضر " .

الرابع : أن العصف الورق الذي لا يؤكل والريحان هو الحب المأكول ، قاله الكلبي .

١ - قال الشيخ عبد الكريم الخضير " واشتمال القرآن على بعض المفردات من اللغات الأخرى سواء كانت عربية أو غير عربية، غير لغة قريش، القرآن في الأصل نزل بلغة قريش، لكن فيه من لغات القبائل الأخرى كما هو معروف، فيه من لغات القبائل الأخرى، والخلاف في وجود بعض الكلمات بلغات الأمم الأخرى، يعني هل في القرآن ألفاظ غير عربية؟ الإجماع على أنه ليس فيه تراكيب وجمل أعجمية؛ لأنه بلسان عربي مبين، كما أن الإجماع قائم على أن فيه أعلام أعجمية، يعني أسماء أعجمية، وليس فيه تراكيب ولا جمل أعجمية، بقي المفردات مثل: مشكاة، ومثل: استبرق وغيرهما، يعني هل فيه من لغة الحبشة شيء؟ هل فيه من لغة فارس شيء؟ أو ليس فيه شيء من ذلك؟ المسألة خلافية بين أهل العلم منهم من يثبت، وفيه كلمات إذا بحثت عنها في معاجم اللغات الأخرى وجدت لها ذكر، فمن أهل العلم من يثبت، ومنهم من يقول: ليس فيه كلام غير عربي، بل الكلمات الموجودة التي يدعى أنها أعجمية هذا مما اتفقت فيه اللغات، يعني تكلم به العرب وغيرهم، أو مما عرب يعني أصله أعجمي ثم عرب، وفي لغة العرب ما يعرف بالمعرب، فيه كتاب اسمه: (المعرب) للجواليقي كتاب من أنفس الكتب، ينبغي لطالب العلم أن يعتني به " .

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُثَنَّدِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: الْعَصْفُ الرِّزْقُ أَوَّلُ مَا يَخْرُجُ بَقْلًا وَالرِّيحَانُ حِينَ يَسْتَوِي عَلَى سَوْقِهِ وَلَمْ يَسْنَبِلْ.

قال الشيخ مصطفى العدوي " إذا قلت: إن الريحان هنا بالضم كما هو مثبت في المصاحف التي بين أيدينا: { وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ } [الرحمن: ١٢] فتكون (الريحان) هنا لها تأويل يختلف شيئاً ما عما إذا قلت: (والحب ذو العصف والريحان) حيث تكون الريحان صفة للعصف، ويكون المراد بها على قول لفريق من المفسرين: الاخضرار، فيقال: والحب ذو الخضرة وذو اليبس، فهو أولاً يكون أخضر، ثم بعد ذلك ييبس ويصبح عصفاً. أما على قراءة من قرأها معطوفة على الحب، فيقول: إن المراد بالحب النبات الأخضر، أو يقول: الريحان المعهود ذو الرائحة الطيبة ".

فقراءة الرفع على ان الريحان شيء مستقل ذكره الله تعالى واما على قراءة الخفض وانه صفة للعصف فالمعروف ان الحب لا رائحة له فخير ما يفسر به حينها انه الرزق واما القراءة الاولى فتحتمل المعاني المذكورة . واما قراءة النصب فقال عنه الزمخشري: " أي : وخلق الحب والريحان : أو وأخص الحب والريحان ". وقد رجح ابن جرير - مستنداً إلى الدلالة العقلية، واللغة - القول الأول، فقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني به: الرِّزْقُ، وهو الحب الذي يؤكل منه، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب لأن الله -جل ثناؤه- أخبر عن الحب أنه ذو العَصْفِ، وذلك ما وصفنا من الورق الحادث منه، والتين إذا ييس، فالذي هو أولى بالريحان أن يكون حبه الحادث منه، إذ كان من جنس الشيء الذي منه العَصْفُ، ومسموع من العرب تقول: خرجنا نطلب ريحان الله ورزقه، ويقال: سبحانك وريحانك، أي: ورزقك، ومنه قول النمر بن تولب: سلامُ الإله وريحانه وجنته وسماءُ درر". ثم قال: «وذكر عن بعضهم أنه كان يقول: العَصْفُ: المأكول من الحب. والريحان: الصحيح الذي لم يؤكل». وقال ابن كثير عقب ذكره الخلاف في هذا: «ومعنى هذا -والله أعلم- أنَّ الحبَّ كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عَصْفٌ، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورق الملتف على ساقها ". وهذا إنما هو طعام الدواب فيكن مرة قد امتن عليهم بطعامهم ومرة امتن عليهم بطعام دوابهم.

قال الشيخ ابن عثيمين : " الحب يعني الذي يؤكل من الحنطة والذرة والدخن والأرز وغير ذلك، وقوله: { ذو العصف } يعني ما يحصل من ساقه عند ييسه وهو ما يعرف بالتبن؛ لأنه يعصف أي تطؤه البهائم بأقدامها حتى ينعصف، { والريحان } هذا الشجر ذو الرائحة الطيبة، فذكر الله في الأرض الفواكه، والنخل، والحب، والريحان، لأن كل واحد من هذه الأربع له اختصاص يختص به، وكل ذلك من أجل مصلحة العباد ومنفعتهم ".

قال ابو حيان " هُوَ مِنْ بَابِ الْإِبْتِدَاءِ بِالْأَدْنَى وَالرَّقْيِ إِلَى الْأَعْلَى، وَنَكَّرَ لَفْظَهَا، لِأَنَّ الْإِنْتِفَاعَ بِهَا دُونَ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا يُذَكَّرُ بَعْدَهَا. ثُمَّ نَتَّى بِالنَّحْلِ، فَذَكَرَ الْأَصْلَ وَلَمْ يَذْكُرْ ثَمَرَهَا، وَهُوَ الثَّمَرُ لِكثَرَةِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا مِنْ لَيْفٍ وَسَعْفٍ وَجَرِيدٍ وَجُدُوعٍ وَجَمَّارٍ وَثَمَرٍ. ثُمَّ أَتَى ثَالِثًا بِالْحَبِّ الَّذِي هُوَ قِوَامُ عَيْشِ الْإِنْسَانِ فِي أَكْثَرِ الْأَقَالِيمِ، وَهُوَ الْبُرُّ وَالشَّعِيرُ وَكُلُّ مَا لَهُ سُنْبُلٌ وَأَوْرَاقٌ مُتَشَعِّبَةٌ عَلَى سَاقِهِ، وَوَصَفَهُ بِقَوْلِهِ: ذُو الْعَصْفِ تَنْبِيْهَا عَلَى إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَقُوْهُمْ مِنَ الْحَبِّ، وَيَقُوْثُ بِهَاتِمِهِمْ مِنْ وَرَقِهِ

الَّذِي هُوَ التَّنُّ. وَبَدَأَ بِالْفَاكِهَةِ وَخَتَمَ بِالْمَشْمُومِ، وَبَيَّنَّهُمَا النَّخْلُ وَالْحَبُّ، لِيُحْصَلَ مَا بِهِ يُتَفَكَّهُ، وَمَا بِهِ يُتَقَوَّتْ، وَمَا بِهِ تَقَعُ اللَّذَازَةُ مِنَ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ. وَذَكَرَ النَّخْلَ بِاسْمِهَا، وَالْفَاكِهَةَ ذُونَ شَجَرِهَا، لِعِظَمِ الْمَنْفَعَةِ بِالنَّخْلِ مِنْ جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَشَجَرَةَ الْفَاكِهَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ثَمَرِهَا خَفِيرَةٍ، فَنَصَّ عَلَى مَا يَعْظُمُ بِهِ الْإِنْتِفَاعُ مِنْ شَجَرَةِ النَّخْلِ وَمِنْ الْفَاكِهَةِ ذُونَ شَجَرِهَا .

قال الرازي : " ما الحكمة في تقديم الفاكهة على القوت ؟

نقول : هو باب الابتداء بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى ، والفاكهة في النفع دون النخل الذي منه القوت ، والتفكه وهو الحب الذي عليه المدار في سائر المواضع ، وبه يتغذى الأنام في جميع البلاد ، فبدأ بالفاكهة ثم ذكر النخل ثم ذكر الحب الذي هو أتم نعمة لموافقته مزاج الإنسان ، ولهذا خلقه الله في سائر البلاد وخصص النخل بالبلاد الحارة .

{والريحان} أي وفيها كل مشموم طيب الريح ، من النبات ، كالورد ، والفل ، والياسمين ، وما شاكلها ، قال في البحر : ذكر تعالى الفاكهة أولاً ونكر لفظها لأن الانتفاع بها نفسها ، ثم ثنى بالنخل فذكر الأصل ، ولم يذكر ثمرها وهو التمر ، لكثرة الانتفاع بها من (ليف ، وسعف ، وجريد ، وجذوع ، وجمار ، وثمر) ، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان ، وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق ، ووصفه بقوله : { ذو العصف } تنبيهاً على إنعامه عليهم ، بما يقوِّمهم تعالى به من الحب ، وما يقوت بهائمهم من ورقه ، وهو التبن ، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم ليحصل ما به يتفكه ، وما به يتقوت ، وما به تقع اللذازة من الرائحة الطيبة ، فسبحان من أنزل القرآن بأفصح بيان ، وأبدع إحكام !

وقال السعدي " {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ} أي: ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة [والأرز] والدخن، وغير ذلك، {وَالرَّيْحَانُ} يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتن على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن الله امتن على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح، وتنشرح لها النفوس

لما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي: فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه السورة، فما مر بقوله: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} إلا قالوا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه، أن يقر بها ويشكر، ويحمد الله عليها .

وفي الآلاء قولان :

أحدهما : أنها النعم ، وتقديره فبأي نعم ربكما تكذبان .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان قال : بأي نعمة الله . ومثله عن قتادة ومقاتل بن سليمان .

الثاني : أنها القدرة ، وتقدير الكلام فبأي قدرة ربكما تكذبان .

اخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: { فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } قال: الآلاء: القدرة، فَبَايَ آلائه تكذب خلقكم كذا وكذا، فَبَايَ قُدرة الله تكذبان أيها الثقلان، الجن والإنس.

وفي قوله ربكما إشارة إلى الثقلين الإنس والجن في قول الجميع .

عن عبد الله بن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: « ما لي أسمعُ الجنَّ أحسن جواباً لربها منكم؟! ما أتيتُ على قول الله: ﴿فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نُكذِّبُ؛ فلك الحمد» اخرجه البزار والطبري وصححه الألباني في الصحيحة.

وعن جابر بن عبد الله، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: « ما لي أراكم سُكُوتًا؟! لقد قرأْتُها على الجنِّ ليلة الجنِّ فكانوا أحسن مردودًا منكم، كنتُ كلَّما أتيتُ على قوله:

﴿فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نُكذِّبُ؛ فلك الحمد". اخرجه الترمذي والحاكم وقال

الحاكم: صحيح، على شرط الشيخين، ولم يخرجاه .«ووافقه الذهبي. وقال الألباني في الصحيحة ١٨٤/٥

(٢١٥٠): (الحديث بمجموع الطريقين لا ينزل عن رتبة الحسن.)»

والحديث وإن كانت أسانيده فيها بعض الأقوال وبعض النزاع، إلا أن هناك نصاً عاماً تندرج تحته مثل هذه الأجوبة، من

هذه النصوص العامة التي تندرج تحتها هذه الأجوبة: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي من الليل فلا يمر بآية

فيها رحمة إلا سأل، ولا بآية فيها عذاب إلا تعوذ) عليه الصلاة والسلام.

واخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ (فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قال: لا بأيتها ربنا.

قال الطاهر بن عاشور " وفائدة التكرير توكيد التقرير بما لله تعالى من نعم على المخاطبين وتعريض بتوبيخهم على إشراكهم

بالله أصناماً لا نعمة لها على أحد ، وكلها دلائل على تفرد الإلهية . وعن ابن قتيبة «أن الله عدّد في هذه السورة نعماء ،

وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلة وَصَفَهَا ، ونعمة وضعها بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم

ويقررهم بها» اه .

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة وتأکید للحجة .

وقال الشريف المرتضى في مجالسه وأماله المسّمى «الدرر والغرر» : وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم ، قال مهلهل بن

ربيعة يرثي أخاه كليباً :

على أن ليس عدلاً من كليب ... إذا طرد اليتيم عن الجزور

وذكر المصراع الأول ثماني مرات في أوائل أبيات متتابعة .

وقال الحارث بن عباد :

قَرَّبَا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حبال

ثم كرر قوله : قَرَّبَا مربط النعامة مني ، في أبيات كثيرة من القصيد .

وهكذا القول في نظائر قوله : { فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } المذكور هنا إلى ما في آخر السورة .

وقال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب : " أن {فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} لم تذكر إلا بعد ذكر نعمة أو موعظة أو إنذار وتخويف وكلها من آلاء الله التي لا يكذب بها إلا كافر جاحد. أما في ذكر النعمة فواضح. وأما في الموعظة فلأن الوعظ تلين له القلوب فتخشع وتنب فالسبب الموصل إلى ذلك من أعظم النعم فظهر أن الوعظ من أكبر الآلاء.. وأما في الإنذار والتخويف كهذه الآية ففيه أيضا أعظم نعمة على العبد لأن إنذاره في دار الدنيا من أهوال يوم القيامة من أعظم نعم الله عليه ألا ترى أنه لو كان أمام إنسان مسافر مهلكة كبرى وهو مشرف على الوقوع فيها من غير أن يعلم بها فجاءه إنسان فأخبره بها وحذره عن الوقوع فيها أن هذا يكون يدا له عنده وإحسانا يجازيه عليه جزاء أكبر الأنعام وهذا الوجه الأخير هو مقتضى الأصول لأنه قد تقرر في علم الأصول أن النص إذا احتمل التوكيد والتأسيس فالأصل حمله على التأسيس لا على التوكيد لأن في التأسيس زيادة معنى ليست في التوكيد وعلى هذا القول فتكرير {فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} إنما هو باعتبار أنواع النعم المذكورة قبلها من إنعام أو موعظة أو إنذار وقد عرفت أن كلها من آلاء الله فالمذكورة بعد نعمة كالمذكورة بعد قوله: {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ} الآية وبعد قوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} الآية لأن السفن واللؤلؤ والمرجان من آلاء الله كما هو ضروري والمذكورة بعد موعظة كالمذكورة بعد قوله: {فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ} الآية. والمذكورة بعد إنذار أو تخويف كالمذكورة بعد قوله: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاطِئُ} الآية . . والعلم عند الله تعالى".

قوله تعالى : { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) }
اخرج ابن جرير عن عبد الله بن عباس عدة اقوال في قوله : ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ، قال : هو مِنَ الطِّينِ الذي إذا مَطَرَتِ السماء فَيَسِيَّتِ الأرض كأنه خَرَفَ الرِّقَاق
وقال : خَلَقَ الله آدم من طين لازِب ، واللازِب : اللزج الطيب من بعد حَمًا مَسْنُون مُنْتِن . قال : وإنما كان حَمًا مَسْنُونًا بعد التراب . قال : فَخَلَقَ منه آدم بيده . قال : فمكث أربعين ليلة جسَدًا مُلَقًى ، فكان إبليس يأتِيه ، فيضربه بِرِجْلِهِ ، فَيُصَلِّصِل ؛ فَيُصَوِّت . قال : فهو قول الله تعالى : ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ ، يقول : كالشيء المنفَرَج الذي ليس بمُصَمَّت .
وقال : الصِّلصال : التراب المُدَقَّق . وقال : الصِّلصال : الطين اليابس . وقال : ما عُصِر ، فَخَرَجَ من بين الأصابع .
وفي تفسير مقاتل عن عبد الله بن عباس : الصِّلصال : الطين الجيّد إذا ذَهَبَ عنه الماء فتشَقَّق ، فإذا تَحَرَّكَ تَقَعَّق .
وقال مجاهد كما يصنع الفخار ، وقال عكرمة : الصِّلصال : طين قد خُلِطَ برمِل ، فكان الفخار .
وقال قتادة : وهو التراب اليابس الذي يُسَمَّعُ له صَلْصَلَةٌ ، وقال مقاتل بن سليمان : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني : آدم
□ ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ يعني : من تراب الرَّمَل ، ومعه مِنَ الطين الحر . وأما قوله : ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ يعني : هو بمنزلة الفخار من قبل أن يُطْبَخ ، يقول : كان ابن آدم من قبل أن يُنْفَخَ فيه الرُّوح بمنزلة الفخار أجوف . (فالْحَاصِلُ ان المراد به خلق آدم عليه السلام في بعض مراحل الخلق انه من طين يابس يسمع له صلصلة وربما خُلِطَ معه بعض الرمل كالطين اليابس قبل ان يُفَخَّر)

واخرج الطبري عن الضحَّاك بن مُزاحم قال : ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ هو إبليس.

واخرج عن ابن عباس، في قوله: (مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ)، قال: من أوسطها وأحسنها. وقال خلقه من لهب النار، من أحسن النار. وقال خالص النار. وقال : خلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا ألهبت.

وقال مجاهد : اللهب الأصفر والأخضر، الذي يعلو النار إذا أوقدت. وعن مجاهد مثله، إلا أنه قال: والأحمر. قال ابو حيان "خَلَقَ الْإِنْسَانَ: لَمَّا ذَكَرَ الْعَالَمَ الْأَكْبَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَوْجَدَ فِيهَا مِنَ النَّعَمِ، ذَكَرَ مَبْدَأَ مَنْ خَلَقَتْ لَهُ هَذِهِ النَّعَمُ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ آدَمُ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ. وَقِيلَ: لِلْجِنِّ، وَسَاعَ ذَلِكَ لِأَنَّ آبَاءَهُمْ مَخْلُوقٌ مِنَ الصَّلْصَالِ. وَإِذَا أُريدَ بِالْإِنْسَانِ آدَمُ، فَقَدْ جَاءَتْ غَايَاتُ لَهُ مُخْتَلِفَةٌ، وَذَلِكَ بِتَنَقُّلِ أَصْلِهِ فَكَانَ أَوَّلًا ثَرَابًا، ثُمَّ طِينًا، ثُمَّ حَمًّا مَسْنُونًا، ثُمَّ صَلْصَالًا، فَنَاسَبَ أَنْ يُنسَبَ خَلْقُهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَالْجَانُّ هُوَ أَبُو الْجِنِّ، وَهُوَ إِبْلِيسُ، قَالَه الْحَسَنُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ أَبُو الْجِنِّ، وَلَيْسَ بِإِبْلِيسَ. وَقِيلَ: الْجَانُّ اسْمُ جِنْسٍ، وَالْمَّارِجُ:

مَا اخْتَلَطَ مِنْ أَصْفَرٍ وَأَحْمَرَ وَأَخْضَرَ، أَوِ اللَّهْبِ، أَوِ الْخَالِصِ، أَوِ الْحُمْرَةِ فِي طَرَفِ النَّارِ، أَوِ الْمُخْتَلِطُ بِسَوَادٍ، أَوِ الْمُضْطَرَبُّ بِلَا دُخَانٍ، أَقْوَالٌ، وَمِنْ الْأَوَّلَى لَا بُدَّاءِ الْغَايَةِ، وَالثَّانِيَةِ فِي مَنْ نَارٍ لِلتَّبْعِيضِ. وَقِيلَ لِلْبَيَانِ وَالتَّكْرَارِ فِي هَذِهِ الْقَوَاصِلِ: لِلتَّكْيِيدِ وَالتَّنْبِيهِ وَالتَّحْزِينِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ. وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنْهُمْ ابْنُ قُتَيْبَةَ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّكْرَارَ إِنَّمَا هُوَ لِاخْتِلَافِ النَّعَمِ، فَكَّرَرَ التَّوْقِيفَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا."

وقال الطاهر بن عاشور " { الجن } : الجن والمراد به إبليس وما خرج عنه من الشياطين ، وقد حكى الله عنه قوله : { خلقتني من نار وخلقته من طين } ."

الجان: جمع جني، سُمُّوا بالجن لاجتماعهم أي: استتارهم عن الأنظار، ومنه سُمِّيَ الجنين في بطن أمه لأنه لا يُرى، فهو مُجْتَنٍّ في بطن أمه، ومنه المجن الذي يتخذ في الحرب يتوقى به المقاتل سهام العدو، سُمِّيَ مَجْنًا لأنه يُجَنُّه من السهام، ومنه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الصوم جُنَّةٌ" بمعنى: أنه ساتر بين العبد وبين المعاصي، يستتر به من المعاصي، ومن كيد الشيطان، ومنه قوله تعالى: { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا } { جَنَّ عَلَيْهِ } يعني: غَطَّاه ظلام الليل.

فالخاصل؛ أن الجن عالم خفي، لا نراهم، وهم يعيشون معنا، وهم مكلفون كما كُلِّفْنَا بالأوامر والنواهي. والإيمان بوجودهم من الإيمان بالقلب، تصديقاً لخبر الله سبحانه وتعالى، وخبر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجود الجن ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، ومن جحد وجود الجن فهو كافر، لأنه مكذِّبٌ لله ولرسوله ولإجماع المسلمين. (اعانة المستفيد للفوزان).

قال الرازي "وفي الصلصال وجهان :-

أحدهما هو بمعنى المسنون من صل اللحم إذا أنتن ويكون الصلصال حينئذ من الصلول وثانيهما من الصليل يقال صل الحديد صليلاً إذا حدث منه صوت وعلى هذا فهو الطين اليابس الذي يقع بعضه على بعض فيحدث فيما بينهما صوت إذ هو الطين اللازب الحر الذي إذا التزق بالشيء ثم انفصل عنه دفعة سمع منه عند

الانفصال صوت فإن قيل الإنسان إذا خلق من صلصال كيف ورد في القرآن أنه خلق من التراب وورد أنه خلق من الطين ومن حمأ ومن ماء مهين إلى غير ذلك نقول أما قوله من تراب (الحج ٥) تارة و من ماء مهين (المرسلات ٢٠) أخرى فذلك باعتبار شخصين آدم خلق من الصلصال ومن حمأ وأولاده خلقوا من ماء مهين ولولا خلق آدم لما خلق أولاده ويجوز أن يقال زيد خلق من حمأ بمعنى أن أصله الذي هو جده خلق منه وأما قوله من طين لأزب (الصافات ١١) من حمأ (الحجر ٢٦) وغير ذلك فهو إشارة إلى أن آدم عليه السلام خلق أولاً من التراب ثم صار طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم لازباً فكأنه خلق من هذا ومن ذاك ومن ذلك والفخار الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف مستعمل على أصل الاشتقاق وهو مبالغة الفاخر كالعلام في العالم وذلك أن التراب الذي من شأنه التفتت إذا صار بحيث يجعل ظرف الماء والمائعات ولا يتفتت ولا ينقع فكأنه يفخر على أفراد جنسه

وفي الجان وجهان أحدهما هو أبو الجن كما أن الإنسان المذكور هنا هو أبو الإنس وهو آدم ثانيهما هو الجن بنفسه فالجان والجن وصفان من باب واحد كما يقال ملح ومالح أو نقول الجن اسم الجنس كالملاح والجان مثل الصفة كالمالح. وفيه بحث وهو أن العرب تقول جن الرجل ولا يعلم له فاعل يبي الفاعل معه على المذكور وأصل ذلك جنه الجان فهو مجنون فلا يذكر الفاعل لعدم العلم به ويقتصر على قولهم جن فهو مجنون وينبغي أن يعلم أن القائل الأول لا يقول الجان اسم علم لأن الجان للجن كآدم لنا وإنما يقول بأن المراد من الجان أبوه كما أن المراد من الإنسان أبونا آدم فالأول منا خلق من صلصال ومن بعده خلق من صلبه كذلك الجن الأول خلق من نار ومن بعده من ذريته خلق من مارج والمارج المختلط ثم فيه وجهان أحدهما أن المارج هو النار المشوبة بدخان والثاني النار الصافية والثاني أصح من حيث اللفظ والمعنى .

أما اللفظ فلأنه تعالى قال من مارج من نار أي نار مارجة..

وأما المعنى فلأنه تعالى كما قال خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ (الرحمن ١٤) أي من طين حر كذلك بين أن خلق الجان من نار خالصة فإن قيل فكيف يصح قوله مارج بمعنى مختلط مع أنه خالص نقول النار إذا قويت التهيت ودخل بعضها في بعض كالشيء الممتزج امتزاجاً جيداً لا تميز فيه بين الأجزاء المختلطة وكأنه من حقيقة واحدة .

قال الصابوني : " أي خلق أباكم آدم من طين يابس ، يسمع له صلصلة أي صوت إذا نقر ، قال المفسرون : ذكر تعالى في هذه السورة أنه خلق آدم [من صلصال كالفخار] وفي سورة الحجر [من صلصال من حمأ مسنون] أي من طين أسود متغير ، وفي الصافات [من طين لازب] أي يلتصق باليد ، وفي آل عمران [كمثل آدم خلقه من تراب] ولا تنافي بينها ، وذلك لأن الله تعالى خلقه أولاً من تراب الأرض ، فعبث بالماء فصار طينا لازباً أي متلاصقاً يلصق باليد ، ثم تركه حتى صار حمأ مسنوناً أي طينا أسود منتناً ، ثم صورته كما تصور الأواني ، ثم أبيسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نقر صوت ، فالمذكور ههنا آخر الأطور

[وخلق الجان من نار] أي وخلق الجن من لهب خالص ، لا دخان فيه من النار ، قال ابن عباس : [من مارج
[أي لهب خالص لا دخان فيه ، وقال مجاهد : هو اللهب المختلط بسواد النار ، وفي الحديث ؟ (خلقت الملائكة من
نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم) "رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنه.

قوله تعالى: { فَبَآئِيَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان ؟ قال أبو حيان : والتكرار في
هذه الفواصل ، للتأكيد والتنبية . وقال ابن قتيبة : إن هذا التكرار إنما هو لإختلاف النعم ، فكلما ذكر نعمة كرر قوله :
[فبأي آلاء ربكما تكذبان] وقد ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، والاستفهام فيها للتقريع والتوبيخ.

قوله تعالى { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبَآئِيَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) }

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله رب المشرقين ورب
المغربين قال : للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الصيف ومطلع في الصيف وغير مطلعها في الشتاء
وغير مغربها في الشتاء

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رب المشرقين ورب المغربين قال : مشرق الشتاء ومغربه ومشرق الصيف
ومغربه

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة وعكرمة مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله رب المشرقين قال : مشرق النجم ومشرق الشفق ورب المغربين قال : مغرب
الشمس ومغرب الشفق .

قال ابو حيان "قرأ الجمهور: رَبُّ، وَرَبُّ بِالرَّفْعِ، أَيُّ هُوَ رَبُّ وَأَبُو حَيَوَةٍ وَابْنُ أَبِي عُبَلَةَ: بِالْحَفْظِ بَدَلًا مِنْ رَبِّكُمَا، وَنَتَى
الْمُضَافَ إِلَيْهِ لِأَنَّهُمَا مَشْرِقًا صَيِّفًا وَالشِّتَاءَ وَمَغْرِبَاهُمَا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقِيلَ: مَشْرِقًا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَغْرِبَاهُمَا. وَعَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ: لِلشَّمْسِ مَشْرِقٌ فِي الصَّيْفِ مُصْعِدٌ، وَمَشْرِقٌ فِي الشِّتَاءِ مُنْحَدِرٌ، تَنْتَقِلُ فِيهِمَا مُصْعِدَةً وَمُنْحَدِرَةً. انْتَهَى.
فَالْمَشْرِقَانِ وَالْمَغْرِبَانِ لِلشَّمْسِ. وَقِيلَ: الْمَشْرِقَانِ: مَطْلَعُ الْفَجْرِ وَمَطْلَعُ الشَّمْسِ، وَالْمَغْرِبَانِ مَغْرِبُ الشَّفَقِ وَمَغْرِبُ
الشَّمْسِ.

وَلِسَهْلِ التُّسْتَرِيِّ كَلَامٌ فِي الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ شَبِيهٌ بِكَلَامِ الْبَاطِنِيَّةِ () الْمُحَرِّفِينَ مَذْلُولَ كَلَامِ اللَّهِ، ضَرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهِ
صَفْحًا. وَكَذَلِكَ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِ الْعُلَاةِ الَّذِينَ يُنْسَبُونَ لِلصُّوفِيَّةِ، لِأَنَّا لَا نَسْتَحِلُّ نَقْلَ شَيْءٍ مِنْهُ. وَقَدْ أَوْلَعَ صَاحِبُ

١ - المدرسة الباطنية . التي تفسر القرآن بغير ما يحتمله النص من المعنى ، ولا يفهم من ألفاظ اللغة العربية .

والمدرسة الصوفية . التي تفعل فعل المدرسة الباطنية من تفسير القرآن بما لا يدل عليه نصه ولا سياقه ولا قرائنه ، ادعاء لكشف ، وأوهام
لا حقيقة لها .

هدفهم من القول بالتأويل الباطني يمكن إجماله فيما يلي:

كِتَابِ التَّخْرِيرِ وَالتَّخْيِيرِ بِحَسَبِ مَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ الْغُلَاةُ فِي كُلِّ آيَةٍ آيَةٍ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ الْحَقَائِقَ، وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ وَمَا ادَّعَوْا فَهَمَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَأَغْلَوْا فِيهِ، لَمْ يَفْهَمُهُ عَرَبِيٌّ قَطُّ، وَلَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ " .

أي هو جل وعلا رب مشرق الشمس والقمر ، ورب مغربهما ، فكيف يعبدون الشمس والقمر ، وينسون خالقهما ؟ ولما ذكر الشمس والقمر في قوله : {الشمس والقمر بحسبان } ذكر هنا أنه رب مشرقهما ومغربهما

١- إبطال الشرائع.

٢- ترويح الباطل.

٣- إضفاء الصبغة الشرعية على ما يقولون، وإيهام الناس أن آراءهم متفقة مع نصوص الشرع. وبذلك صارت تلك الطوائف تأخذ بالتأويل الباطني لنصوص القرآن.

وتزعم أن من تقاعد عَقْلُهُ عن الغوص في الخفايا والأسرار، والبواطن والأغوار، وقنع بظواهرها - كان تحت الآصار والأغلال. وأرادوا بالأغلال: التكاليف الشرعية؛ لأن من ارتقى إلى علم الباطن - بزعمهم - سقطت عنه التكاليف، واستراح من أعبائها. ومن هنا جاؤوا بتأويلات باطلة لا تستند إلى شرع، ولا عقل، ولا عرف، ولا لغة، بل إنها تخالف ذلك كله - ومصادر الفكر الباطني ليست من الإسلام في شيء، وإنما هي أفكار دخيلة على عقائد الإسلام؛ فهي مستقاة من الفلسفة اليونانية والهندية، ومن الديانات المجوسية، واليهودية، والنصرانية، وغيرها. ويروجون ضلالهم بشعارات يخدعون بها العوام.

وتأويلات الباطنية لا تتصل بمدلول الألفاظ، ولا بمفهومها، ولا بالسياق القرآني. بل هي مخالفة للنص القرآني تماماً، باحثة في كتاب الله عن أصل تنشبت به؛ ليؤيد شذوذهم، وغايتهم في الصد عن كتاب الله ودينه. وحاصل هذا الاتجاه الباطني في تأويل نصوص الشريعة هو الانحلال عن الدين. فعملهم هو استخدام القرآن ليؤيد شذوذهم لا السعي في خدمة كتاب الله تعالى واستنباط الاحكام الشرعية بالضوابط المعروفة عند اهل العلم سلفاً وخلفاً.

وعموماً البشر على اختلاف لغاتهم يعدون ظاهر الكلام هو العمدة في المعنى.

وأما أسلوب التعمية والإلغاز فلا وجود له إلا في الفكر الباطني.

ولو اتَّخَذَ هذا الأسلوب قاعدةً لما أمكن التفاهم بحال، ولما حصل الثقة بمقال؛ لأن المعاني الباطنية لا ضابط لها ولا نظام.

هذا في الكلام عموماً؛ فكيف بكلام الله المنزل، الذي وصفه الله - عز وجل - بأنه "بيان للناس".

وفي الناس عالمون، و جاهلون، ومنهم أميون، وكاتبون قارئون.

ولكن الله جعله بياناً لهم جميعاً، مُيسِّراً للذكر؛ ليعبد الناس ربهم على بصيرة.

والمتمائل لمقالة التأويل الباطني يدرك خطورتها في تفسير القرآن، وأنها تقتضي بطلان الثقة بالألفاظ، وتسقط الانتفاع بكلام الله ورسوله، ويصير ما يسبق إلى الفهم لا يوثق به.

وبهذا الطريق يحاول الباطنية التوصل إلى هدم الشريعة بتأويل ظواهرها، وتنزيلها على رأيهم دون ضابط، أو رادع.

ولو كانت تلك التأويلات الباطنية هي معاني القرآن ودلالاته لما تحقق الإعجاز، وكان من قبيل الإلغاز.

وقال الطاهر بن عاشور " وتثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر ومراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال : المشرق والمغرب كما في قوله تعالى : { فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون } في سورة المعارج (٤٠) .

ومن زعم أن تثنية المشرقين لمراعاة مشرق الشمس والقمر وكذلك تثنية المغربين لم يغص على معنى كبير .
وعلى ما فسّر به الجمهور المشرقين { و { المغربين { بمشركي الشمس ومغربيها فالمراد ب { المشرقين { النصف الشرقي من الأرض ، وب { المغربين { النصف الغربي منها .
وربوبة الله تعالى للمشرقين والمغربين بمعنى الخلق والتصرف .

وقال الرازي " فإن قيل ما الحكمة في اختصاصهما مع أن كل يوم من ستة أشهر للشمس مشرق ومغرب يخالف بعضها البعض نقول غاية الخطأ الشمس في الشتاء وغاية ارتفاعها في الصيف والإشارة إلى الطرفين تتناول ما بينهما فهو كما يقول القائل في وصف ملك عظيم له المشرق والمغرب ويفهم أن له ما بينهما أيضاً " .

وقال ابن القيم : " قوله عز و جل { فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * على أن نبذل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين } أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب وهي إما مشارق النجوم ومغاربها أو مشارق الشمس ومغاربها وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب فكذلك جمع في موضع وأفرد في موضع وثني في موضع آخر فقال { رب المشرقين ورب المغربين { فقليل : هما مشرقا الصيف والشتاء وجاء في كل موضع ما يناسبه فجاء : في سورة الرحمن { رب المشرقين ورب المغربين { لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات فذكر فيها الخلق والتعليم والشمس والقمر والنجوم والشجر والسماء والأرض والحب والثمر والجن والإنس ومادة أبي البشر وأبي الجن والبحرين والجنة والنار وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما وأخبر أن في كل جنة عينين فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين

وأما سورة (سأل سائل) فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكما لها وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع إذ هو أدل على المقسم عليه سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها أو مشارق الشمس ومغاربها أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون فيأتي بهم في نشأة أخرى كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع ويذهب (بها) في مغرب

وأما في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الأفراد لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته وكما أنه تفرد بربوبة المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده فليس للمشرق والمغرب رب سواه فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله { وما رب العالمين } فقال { رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون } وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته للسموات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم وربوبيته ما بين الجهتين وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه ثم قال { إنا لقادرون * على أن نبذل

خيرا منهم وما نحن بمسبوقين { أي لقادرون على أن يذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيرا منهم كما قال تعالى { إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا } .

قال ابن كثير : " وَلَمَّا كَانَ فِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، مَصَالِحُ لِلْخَلْقِ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ قَالَ : { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } ؟ " .

قوله تعالى { مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) } أي أرسل البحر الملح ، والبحر العذب ، يتجاوران يلتقيان ولا يمتزجان وقوله تعالى { بينهما برزخ لا يبغيان }

أي بينهما حاجز من قدرة الله تعالى ، لا يطغى أحدهما على الآخر بالمازجة ، قال ابن كثير : والمراد بالبحرين : الملح ، والحلو ، فالمالح هذه البحار ، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وجعل الله بينهما برزخا ، وهو الحاجز من الأرض ، لئلا يبغي هذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ((مختصر تفسير ابن كثير ، وهذا هو الصحيح أن المراد بهما : البحار ، والأنهار ، وهو من باب التغليب ، ويدل على هذا القول ، أن الله وصفهما بقوله { وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج } وليس على وجه الأرض كلها من البحار ، ما هو حلو الماء ، فتدبر آيات الذكر الحكيم ، والله يردك !)) .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله مرج البحرين قال : أرسل البحرين بينهما برزخ قال : حاجز لا يبغيان قال : لا يختلطان

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد مرج البحرين يلتقيان قال : مرجهما استواؤهما بينهما برزخ قال : حاجز من الله لا يبغيان قال : لا يختلطان وفي لفظ لا يبغي أحدهما على الآخر لا العذب على المالح ولا المالح على العذب

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله مرج البحرين يلتقيان قال علي وفاطمة بينهما رزخ لا يبغيان قال : النبي صلى الله عليه و سلم يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان قال : الحسن والحسين

وانتقد ابن تيمية في (منهاج السنة ١/١٩٩) هذا الأثر -مستندا إلى العقل وأقوال السلف -بقوله:«وكل من له عقل وعلم يعلم بالاضطرار بطلان هذا التفسير، وأن ابن عباس لم يقل هذا.»

وجاء في موسوعة التفسير "في المراد بالبحرين أقوال :

الأول :عني بهما: بحر السماء، وبحر الأرض .

الثاني :عني بهما: بحر فارس، وبحر الروم.

الثالث :عني بهما: فاطمة، وعلي.

ولم يذكر ابن جرير غير القولين الأولين، ثم رجَّح الأول مستندا إلى الدلالة العقلية .

قال ابن كثير: " وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ هَاهُنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَحْرَيْنِ: بَحْرَ السَّمَاءِ وَبَحْرَ الْأَرْضِ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَطِيَّةِ وَابْنِ أَبِيزَى.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لِأَنَّ اللَّؤْلُؤَ يَتَوَلَّدُ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ، وَأَصْدَافِ بَحْرِ الْأَرْضِ . وَهَذَا وَإِنْ كَانَ هَكَذَا لَيْسَ الْمُرَادُ [بِذَلِكَ] مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُسَاعِدُهُ اللَّفْظُ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ: {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} أَيُّ: وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا، وَهُوَ: الْحَاجِزُ مِنَ الْأَرْضِ، لِئَلَّا يَبْغِيَ هَذَا عَلَى هَذَا، وَهَذَا عَلَى هَذَا، فَيُفْسِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ، وَيُزِيلُهُ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةٌ مِنْهُ. وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يُسَمَّى بَرْزَخًا وَحَجَرًا مَحْجُورًا " .

وقد ساق ابنُ تيمية القول الثالث عن سفيان الثوري، من طريق الثعلبي، وذكر أنَّ الثعلبي ذكره بإسنادٍ رواه مجهولون لا يعرفون عن سفيان الثوري، ثم ساق إسناد الثعلبي، وانتقده -مستندًا لضعف إسناده -بقوله: «وهذا الإسناد ظلّمت بعضها فوق بعض، لا يثبت بمثله شيء .» ثم انتقد القول جملةً -مستندًا إلى أحوال النزول، واللغة، والنظائر، والدلالة العقلية، وإجماع المفسرين -من وجوه:

أحدها: أنَّ سورة الرحمن مكيّة بإجماع المسلمين، والحسن والحسين إنما وُلدا بالمدينة .

الثاني: أنَّ تسمية هذين بحرين، وهذا لؤلؤًا، وهذا مرجانًا، وجعل النكاح مَرَجًا؛ أمر لا تحتمله لغة العرب بوجه، لا حقيقة ولا مجازًا، بل كما أنه كذبٌ على الله وعلى القرآن، فهو كذبٌ على اللغة .

الثالث: أنَّ الله ذكر أنه مَرَج البحرين في آية أخرى، فقال في الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذَبَ فِرَاتٌ وَهَذَا مَلْحٌ أجاج﴾ [الفرقان: ٥٣] فلو أُريد بذلك علي وفاطمة لكان ذلك ذمًّا لأحدهما، وهذا باطل بإجماع أهل السنة والشيعة .

الرابع: أنه قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ فلو أُريد بذلك علي وفاطمة؛ لكان البرزخ الذي هو النبي ﷺ بزعمهم أو غيره هو المانع لأحدهما أن يبغي على الآخر. وهذا بالذم أشبه منه بالمدح .

الخامس: أنَّ أئمة التفسير مُتَّفِقُونَ على خلاف هذا، كما ذكره ابن جرير وغيره. فقال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كلّ عام. وقال الحسن: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني: بحر فارس والروم، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾: هو الجزائر .

وزاد ابن عطية قولين آخرين،

أحدهما: عني بهما: بحر القلزم واليمن، وبحر الشام .

ثانيهما: أنهما مطر السماء، وبحر الأرض.

وقال: "والظاهر عندي ان قوله تعالى " البحرين " يريد بهما نوعي الماء العذب

والأجاج أي خلطهما في الارض وأرسلهما متداخلين في وضعهما في الارض قريب بعضهما من بعض ولا بغي والعبرة في

هذا التأويل منيرة وأنشد منذر بن سعيد

(ومزوجة الأمواه لا العذب غالب
على الملح طيبا ولا الملح يعذب)

اما قوله " يلتقيان " فعلى التأويلين الأولين معناه هما معدان للالتقاء وحققهما ان يلتقيا لولا البرزخ " .
 ووجهه على قول من قال: عني بهما بحر السماء وبحر الأرض. فقال: «وعلى القول الثالث أنهما يلتقيان كل سنة مرة
 » . «وانتقد قول من قال: إنه بحر يجتمع في السماء. قائلًا: «فمن ذهب إلى أنه بحر يجتمع في السماء فهو قول ضعيف .
 غير أنه ذكر له وجهًا ينتظم به مع قول من قال: إنهما مطر السماء وبحر الأرض، فقال: «وإنما يتوجه اللقاء فيه وفي القول
 الرابع بنزول المطر .«وجهه على القول بأن المراد بهما نوعي الماء: المالح والعذب بقوله: «وفي القول الخامس بالأفكار في
 البحر، وبالعيون قرب البحر.»» .

[فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟

وهو تكرير كما علمته مما تقدم ، ووقع هنا اعتراضاً بين أحوال البحرين .
 قوله تعالى { يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ } (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) }
 قال يحيى بن يعمر: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾، أي: من أحدهما . (تفسير ابن زنين).
 وقال مقاتل بن سليمان: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ من المائين جميعاً؛ ماء المالح وماء العذب، ومن ماء السماء .
 قال الطبري " واختلفت القراء في قراءة قوله: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)، فقراءته عامة قراء المدينة والبصرة: (يَخْرُجُ)
 على وجه ما لم يسم فاعله . وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة وبعض المكيين بفتح الباء .
 والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، لتقارب معنيهما " .
 وقال ابو حيان: " قَرَأَ الْجُمْهُورُ: يَخْرُجُ مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ: مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ وَالْجَعْفِيُّ، عَنْ أَبِي
 عَمْرٍو: بِأَلْيَاءٍ مَضْمُومَةٍ وَكَسْرِ الرَّاءِ، أَيْ يَخْرُجُ اللَّهُ وَعَنْهُ وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو، وَعَنْ ابْنِ مِقْسَمٍ: بِالتَّوْنِ . وَاللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ نَصَبٌ
 فِي هَاتَيْنِ الْقَرَاءَتَيْنِ .
 وَالظَّاهِرُ فِي مِنْهُمَا أَنَّ ذَلِكَ يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْحِ وَالْعَذْبِ . وَقَالَ بِذَلِكَ قَوْمٌ، حَكَاهُ الْأَخْفَشُ . وَرَدَّ النَّاسُ هَذَا الْقَوْلَ، قَالُوا:
 وَالْحَسُّ يُخَالَفُهُ، إِذْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنَ الْمِلْحِ ... وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْحِ، لَكِنَّهُ قَالَ مِنْهُمَا تَجَوُّزًا .
 .. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ، وَتَبَعَ الرَّجَّاحُ مِنْ حَيْثُ هُمَا نَوْعٌ وَاحِدٌ، فَخُرُوجُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هِيَ مِنْهُمَا، وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَصُّ عِنْدَ
 التَّفْصِيلِ الْمَبَالِغِ بِأَحَدِهِمَا، كَمَا قَالَ: سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا « ١ » ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي إِحْدَاهُنَّ، وَهِيَ
 الدُّنْيَا إِلَى الْأَرْضِ " .

وقال الشنقيطي: " اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية {يَخْرُجُ مِنْهُمَا} أي من مجموعها
 الصادق بالبحر المالح، وأن الآية من إطلاق الجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر المالح وحده
 دون العذب .

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه، لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا
 شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى: { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا

مَلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ حَمًّا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا { فاطر: ١٢ } ، فالتنوين في قوله: { مِنْ كُلِّ } تنوين عوض أي من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها، وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه .

وقد عرف الناس في ازمنتنا وجود اللؤلؤ في المياه العذبة بل لذلك في بعض الدول مزارع لانتاج اللؤلؤ من المياه العذبة كما هو الحال في الصين .

وروى الطبري "عن ابن عباس (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) ، قال: اللؤلؤ: ما عظم منه، والمرجان: اللؤلؤ الصغار. ومثله عن قتادة والضحاك وغيرهم.

وقال آخرون: المرجان من اللؤلؤ: الكبار، واللؤلؤ منها: الصغار.

والصواب من القول في اللؤلؤ، أنه هو الذي عرفه الناس مما يخرج من أصداف البحر من الحب (فالمتفق عليه انه الدر الذي يخرج من البحر ولا يضر الاختلاف في كونه الصغار منه او الكبار والبحاره لا يجدونه على حجم واحد بل منه الكبار ومنه الصغار) ، وأما المرجان، فإني رأيت أهل المعرفة بكلام العرب لا يتدافعونه أنه جمع مرجانة، وأنه الصغار من اللؤلؤ".

وقال ابن عطية : "والوصف بالصغر هو الصواب في اللؤلؤ .«ورجح في المرجان أنه حجرٌ أحمر، فقال» : وقال ابن مسعود وغيره: المرجان: حجر أحمر. وهذا هو الصواب في المرجان".

وقال الصابوني : " أي يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان ، كما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان ."

وقال الطاهر بن عاشور : " وبين قوله : { مرج } [الرحمن : ١٩] وقوله : { والمرجان } الجنس المذيل ."

وقال الشنقيطي : " واللؤلؤ الدر، والمرجان الخرز الأحمر. وقال بعضهم: المرجان صغار الدر واللؤلؤ كباره . فيكون قد ذكر اشياء متقابلة اللؤلؤ الكبار والصغار ولكل مزية والله اعلم.

وقال ابن جرير : " والصواب من القول في اللؤلؤ، أنه هو الذي عرفه الناس مما يخرج من أصداف البحر من الحب، وأما المرجان، فإني رأيت أهل المعرفة بكلام العرب لا يتدافعونه أنه جمع مرجانة، وأنه الصغار من اللؤلؤ. قد ذكرنا ما فيه من الاختلاف بين متقدمي أهل العلم، والله أعلم بصواب ذلك ."

والمرجان نوع من الحلي وليس الشعب المرجانية المعروفة في عالم البحار اليوم .

قال ابن كثير : " وَلَمَّا كَانَ اتِّخَاذُ هَذِهِ الْحِلْيَةِ نِعْمَةً عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، اِمْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ : { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } ."

قوله تعالى : { وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) } .

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله وله الجوار المنشآت قال : المنشآت ما رفع قلعة (أي اشرعته) من السفن فأما ما لم يرفع قلعة فليس بمنشآت

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن وله الجوار المنشآت قال : السفن و المنشآت قال : بالشرع كالأعلام قال كالجبال :

قال العدوي : " { وَلَهُ الْجَوَارِ } أي: السفن، جمع جارية كما قال تعالى : { إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة: ١١] وسميت جارية لجريها، كما أطلق على الفتاة جارية لجريها في خدمة أبيها، وعلى الأمة جارية لجريها ولسعيها في خدمة سيدها، فيطلق على السفن، والجواري، والفلك.

الأعلام المراد بها الجبال، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ولينزلن قوم إلى جنب علم) فالعلم هنا هو الجبل". قال الطبري : " وقوله: (الْمُنْشَأَتُ فِي الْبَحْرِ) اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الكوفة (الْمُنْشَأَتُ) بكسر الشين، بمعنى: الظاهرات السير اللاتي يقبلن ويدبرن. وقرأ ذلك عامة قراء البصرة والمدينة وبعض الكوفيين (الْمُنْشَأَتُ)، بفتح الشين، بمعنى المرفوعات القلاع اللاتي تقبل بمن وتدبر.

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى متقاربتاه، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب ". قال ابو حيان " وَلَهُ الْجَوَارِ : حَصَّ تَعَالَى الْجَوَارِيَ بِأَنَّهَا لَهُ، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا هُمْ مُنْشِئُهَا، أَسْنَدَهَا تَعَالَى إِلَيْهِ، إِذْ كَانَ تَمَامُ مَنْفَعَتِهَا إِنَّمَا هُوَ مِنْهُ تَعَالَى، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَالِكُهَا. وَالْجَوَارِي: السُّفُنُ. وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ وَالْحَسَنُ وَعَبْدُ الْوَارِثِ، عَنْ أَبِي عَمْرٍو: بِضَمِّ الرَّاءِ، كَمَا قَالُوا فِي شَاكِ شَاكٌ. (وهي قراءة شاذة) وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ الْمُنْشَأَتُ بِفَتْحِ الشَّيْنِ، اسْمٌ مَفْعُولٌ: أَيُّ أَنْشَأَهَا اللَّهُ، أَوْ النَّاسُ، أَوْ الْمَرْفُوعَاتُ الشَّرَاعِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا لَهُ شَرَاعٌ مِنَ الْمُنْشَأَتِ، وَمَا لَمْ يُرْفَعْ لَهُ شَرَاعٌ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُنْشَأَتِ. وَالشَّرَاعُ: الْقُلْعُ. وَالْأَعْمَشُ وَحَمْرَةٌ وَزَيْدٌ بُنْ عَلِيٍّ وَطَلْحَةُ وَأَبُو بَكْرٍ: بِخِلَافِ عَنْهُ، بِكُسْرِ الشَّيْنِ: أَيِ الرَّافِعَاتُ الشَّرَاعِ، أَوْ اللَّاتِي يُنْشِئْنَ الْأَمْوَاجَ بِجَرِيهِنَّ، أَوْ الَّتِي تُنْشِئُ السَّفَرَ إِقْبَالًا وَإِذْبَارًا. وَشَدَّدَ الشَّيْنُ ابْنَ أَبِي عُبَلَةَ وَالْحَسَنُ الْمُنْشَأَةَ، وَحَدَّ الصِّفَةَ، وَدَلَّ عَلَى الْجَمْعِ الْمُوصُوفُ، كَقَوْلِهِ: أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ «٢»، وَقَلَبَ الْحَمْرَةَ أَلْفًا عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ:

إِنَّ السَّبَاعَ لَتَهْدِي فِي مَرَابِضِهَا

يُرِيدُ: لَتَهْدِي، التَّاءُ لِتَأْنِيثِ الصِّفَةِ، كُتِبَتْ تَاءٌ عَلَى لَفْظِهَا فِي الْوَصْلِ. كَالْأَعْلَامِ:

أَيُّ كَالْجِبَالِ وَالْأَكَامِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كِبَرِ السُّفُنِ حَيْثُ شَبَّهَهَا بِالْجِبَالِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمُنْشَأَتُ تَنْطَلِقُ عَلَى السَّفِينَةِ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ .

وقال الطاهر بن عاشور : " واللام للملك وهو ملك تسخير السير فيها ، قال تعالى : { ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبن } [الشورى : ٣٢ ٣٤] . فالعنى : أن الجواري في البحر في تصرفه تعالى ، قال تعالى : { والفلك تجري في البحر بأمره } [الحج : ٦٥] .

والإخبار عن الجواري بأنها له للتنبيه على أن إنشاء البحر للسفن لا يخرجها عن ملك الله .

والجوارِ صفة لموصوف محذوف دل عليه متعلقه وهو قوله : { في البحر } . والتقدير : السفن الجوارِي إذ لا يجري في البحر غير السفن .

وكتب في المصحف الإمام { الجوار } براء في آخره دون ياء وقياس رسمه أن يكون يياء في آخره ، فكتب بدون ياء اعتداداً بحالة النطق به في الوصل إذ لا يقف القارئ عليه ولذلك قرأه جميع العشرة بدون ياء في حالة الوصل والوقف لأن الوقف عليه نادر في حال قراءة القارئ .

وقرأ الجمهور { المنشآت } بفتح الشين ، فهو اسم مفعول ، إذا أُوجد وصُنع ، أي التي أنشأها الناس بإلهام من الله فحصل من الكلام مِنتان مِنة تسخير السفن للسير في البحر ومِنة إلهام الناس لإنشائها .
.... ووصفت الجوارِي بأنها كالأعلام ، أي الجبال وصفاً يفيد تعظيم شأنها في صنعها المقتضي بداعة إلهام عقول البشر لصنعها ، والمقتضى عظم المِنة بما لأن السفن العظيمة أمكن لحمل العدد الكثير من الناس والمتاع .

وقال الشيخ عبد الكريم الحضير " { المُنشآتُ } يعني المحدثات التي أنشأها البشر وصنعوها هي لله -جل وعلا-؛ لأنه هو الذي يسيرها، يعني وسائل النقل الأخرى تسير لكن كيفية سيرها؟ إن كانت من صنع البشر فأمرها واضح، يعني لو قلنا: مثلاً السيارات والطائرات وغيرها، ما الذي يسير .. ؟ كيف تسير السيارة؟ على أمور محسوسة، أمور محسوسة صنعها البشر، وإن كان البشر لا يستقل فالله خالقه وخالق ما عمل، خالقه، خالق الصانع وخالق الصناعة، {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات]

... {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ} [سورة الرحمن] المحدثات التي صنعها البشر بأمر الله -جل وعلا- وإرادته ويتعليمه إياه؛ لأنه هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

.. { فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ } [سورة الرحمن] يعني كالجبال، العلم الجبل، الأعلام واحدها علم، وهو الجبل، وكثيراً ما يقال: فلان علم في رأسه نار، أو كأنه علم في رأسه نار، يعني كأنه جبل في ذروته نار، يشاهده القريب والبعيد .
وقوله: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يقول تعالى ذكره : فَبِأَيِّ نعم ربكما معشر الجنّ والإنس التي أنعمها عليكم، بإجرائه الجوارِي المنشآت في البحر جارية بمنافعكم - تكذّبان.(الطبري).

قوله تعالى : { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) } يقول تعالى ذكره: كلّ من على ظهر الأرض من جنّ وإنس فإنه هالك، ويبقى وجه ربك يا محمد ذو الجلال والإكرام؛ وذو الجلال والإكرام من نعت الوجه فلذلك رفع ذو . وقد ذُكر أنها في قراءة عبد الله بالياء، (ذي الجلال والإكرام) على أنه من نعت الربّ وصفته.

أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : إذا قرأت كل من عليها فان فلا تسكت حتى تقرأ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

أي حتى تبين الاستثناء؛ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق، وذلك للتقابل، فهذا فناء وهذا بقاء. أي: هذا فناء كتب على المخلوقين، وهذا بقاء واجب لله تبارك وتعالى. وقال تعالى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾، أي: لا يفنى.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ذو الجلال والإكرام قال: ذو الكبرياء والعظمة

وأخرج ابن المنذر والبيهقي عن حميد بن هلال قال: قال رجل: يرحم الله رجلاً أتى على هذه الآية ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فسأل الله تعالى بذلك الوجه الكريم ولفظ البيهقي بذلك الوجه الباقي الجميل.

قال ابن كثير: "يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّ الرَّبَّ -تَعَالَى وَتَقَدَّسَ- لَا يَمُوتُ، بَلْ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا. قَالَ قَتَادَةُ: أَنْبَأَ بِمَا خَلَقَ، ثُمَّ أَنْبَأَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَنَ .

وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: يَا حَيُّ، يَا قَيُّوْمُ، يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ نَسْتَغِيثُ ، أَصْلَحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ.

...وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [الْقَصَصِ: ٨٨] ، وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ {ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} أَيُّ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ، كَقَوْلِهِ: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الْكَهْفِ: ٢٨] ، وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمُتَصَدِّقِينَ: {إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ} [الْإِنْسَانِ: ٩]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} ذُو الْعُظْمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ.

وَلَمَّا أَخْبَرَ عَنْ تَسَاوِي أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْوَفَاةِ، وَأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ قَالَ: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} .

قال الطاهر بن عاشور " لما كان قوله: { وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام } [الرحمن : ٢٤] مؤذناً بنعمة إيجاد

أسباب النجاة من الهلاك وأسباب السعي لتحصيل ما به إقامة العيش إذ يسر للناس السفن عوناً للناس على الأسفار وقضاء الأوطار مع السلامة من طغيان ماء البحار ، وكان وصف السفن بأنها كالأعلام توسعة في هذه النعمة أتبعه

بالموعظة بأن هذا لا يحول بين الناس وبين ما قدره الله لهم من الفناء ، على عادة القرآن في الفُرس للموعظة والتذكير

كقوله: { أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة } [النساء : ٧٨] . وفائدة هذا أن لا ينسوا

الاستعداد للحياة الباقية بفعل الصالحات ، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى ويقبلوا على توحيده وطلب مرضاته .

ووقوع هذه الجملة عقب ما عدد من النعم فيه إيماء إلى أن مصير نعم الدنيا إلى الفناء .

والجملة استئناف ابتدائي .

وضمير { عليها } مراد به الأرض بقرينة المقام مثل { حتى توارت بالحجاب } [ص : ٣٢] ، أي الشمس ومثله في

القرآن وكثير وفي كلام البلغاء .

ومعنى { فان } : أنه صائر إلى الفناء ، فهذا من استعمال اسم الفاعل لزمان الاستقبال بالقرينة مثل { إنك ميت وإنهم ميتون } [الزمر : ٣٠] .

والمراد ب { من عليها } : الناس لأنهم المقصود بهذه العبر ، ولذلك جيء ب (من) الموصولة الخاصة بالعقلاء . والمعنى : أن مصير جميع من على الأرض إلى الفناء ، وهذا تذكير بالموت وما بعده من الجزاء " .
والمراد بالفناء والهلاك المذكورين في الآيتين بالنسبة للأرواح إنما هو خروجها من أبدانها . وليس عدمها مطلقاً فإنها لا تفتى كالجنة والنار ونحوهما . وقد جمعها ابن القيم فقال في " الكافية الشافية " (٩٧/١ - شرح ثمانية حكم البقاء يعمها من الخلق والباقون في حيز العدم

هي العرض والكرسي ونار وجنة وشجب وأرواح كذا اللوح والقلم فالأرواح لا تموت فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان . قالوا : وقد دل على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله تعالى في أجسادها ولو ماتت الأرواح لا تقطع عنها النعيم والعذاب وقال الله تعالى : { ولا تحسبن الذي قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون } هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذقت الموت .

بخلاف الدهريين الذين يقولون بأن الروح تفتى كالجسد .

وقال ابو حيان : " قَرَأَ الْجُمُحُورُ : ذُو بِالْوَاوِ ، وَصِفَةً لِلْوَجْهِ وَأَيُّ وَعَبَدَ اللَّهَ : ذِي بِالْيَاءِ ، صِفَةً لِلرَّبِّ " .
وقال العدوي : " كما قال الله سبحانه لنبه محمد عليه الصلاة والسلام : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } [الزمر : ٣٠] ، وكما قال سبحانه : { وَمَا جَعَلْنَا لِنَبْشِرَ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ } [الأنبياء : ٣٤] ، وكما قال الله سبحانه : { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ } [آل عمران : ١٨٥] .

فهنا يذكر سبحانه لفظاً عاماً في كل الخلائق : { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنْ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن : ٢٦-٢٧] الجلال مأخوذة من الإجلال ، وقولك : أنا أجل الشخص عن كذا ، أي : أنزهه وأرفعه عن هذا المستوى ، فتقول : أنا أجلك عن هذا الفعل ، أي : أرفع قدرك ، فلا يليق بك أن تنزل إلى هذا المستوى الرديء وتفعل هذا الفعل ، فأنت أجل من هذا الفعل ، وأعظم من هذا الفعل ، فالجلال هنا من هذا المعنى .
وكذلك : الإكرام ، بمعنى : أنا أكرمك أن تصنع هذا الصنيع ، وأن تنزل إلى هذا المستوى ، فربنا أجل وأكرم ، فهو لا يتطرق إليه سبحانه عيب ولا نقص بحال من الأحوال ، منزّه عن كل قبيح ، ومنزه عن كل نقص ، ومنزه عن كل عيب سبحانه وتعالى .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (أَلْظَلُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) أي : أَلْخُوا فِي الدُّعَاءِ وَأَكْثَرُوا فِي الدُّعَاءِ ، من قول : يا ذا الجلال والإكرام ، فتقول مثلاً : يا ذا الجلال والإكرام افعل لي وافعل ، كما تقول بعد الصلاة : اللهم ! أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، فتدخل بها أدعيتك " .

وقال الشنقيطي : " والوجه صفة من صفات الله العلي وصف بها نفسه، فعليها أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق".

والوجه معناه معلوم لكن كيفيته مجهولة للخلق .

وقال ابن عثيمين: "وأجمع السلف على إثبات الوجه لله تعالى؛ فيجب إثباته له بدون تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، وهو وجه حقيقي يليق به" [شرح لمعة الاعتقاد].

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: كل من على ظهر الأرض من جن وإنس؛ فإنه هالك، ويبقى وجه ربك يا محمد ذو الجلال والإكرام، و[ذو الجلال والإكرام] من نعت الوجه؛ فلذلك رفع [ذو]..».

وقال ابن الجوزي في كتابه «مجالس ابن الجوزي» يرد على من أول الوجه بالذات: «وقول المعتزلة: إنه أراد بالوجه الذات؛ فباطل؛ لأنه أضافه إلى نفسه، والمضاف ليس كالمضاف إليه؛ لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه...».

وقال الكرمي () رحمه الله . في كتابه (أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات): ومذهب السلف أن الوجه صفة ثابتة لله ورد بها السمع فتلقى بالقبول، ويُنطَل مذهب أهل التأويل ما قاله البيهقي والخطابي في قوله تعالى {ويبقى وجه ربك ذو الجلال} فأضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه فقال {ذو الجلال} ولو كان ذكر الوجه صلة ولم يكن صفة للذات لقال ذي الجلال، فلما قال {ذو الجلال} علمنا أنه نعت للوجه، وأن الوجه صفة للذات، وقالت الحنابلة لتأييد مذهب السلف: إنه قد ثبت في الخطاب العربي الذي أجمع عليه أهل اللغة أن تسمية الوجه في أي محل وقع من الحقيقة والمجاز يزيد على قولنا ذات فأما في الحيوان فذلك مشهور حقيقة ولا يمكن دفعه، وأما في مقامات المجاز فكذلك أيضا لأنه يقال فلان وجه القوم لا يراد به ذوات القوم إذ ذوات القوم غير قطعاً، ويقال هذا وجه الثوب لما هو أجوده، ويقال هذا وجه الرأي أي أصحه وأقومه، وأتيت بالخبر على وجهه أي على حقيقته إلى غير ذلك مما يقال فيه الوجه، فإذا كان هذا هو المستقر في اللغة وجب أن يحمل الوجه في حق الباري على وجه يليق به صفة زائدة على تسمية قولنا ذات. انتهى .

قال الإمام ابن خزيمة في إثبات صفة الوجه لله عز وجل:

فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وحمّامة واليمن والعراق والشام ومصر، مذهبنا: أنا نثبت لله ما أثبتته الله لنفسه، نقر ذلك بالسنتنا، ونصدق ذلك بقلوبنا، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين عز ربنا عن أن يشبه المخلوقين. {كتاب التوحيد لابن خزيمة}.

قال ابن كثير في معرض تفسيره لقوله تعالى { للذين احسنوا الحسنى وزيادة }

١ - مرعي بن يوسف الكرمي فقيه ومحدث ومفسر يوفي (١٠٣٣هـ) شيخ الحنابلة في عصره من مؤلفاته "غاية المنتهى في الجمع بين الاقناع والمنتهى".

وَقَدْ رُويَ تَفْسِيرُ الزِّيَادَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَخُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ [قَالَ الْبَغَوِيُّ وَأَبُو مُوسَى وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ] وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَابِطٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعَكْرَمَةُ، وَعَامِرُ بْنُ سَعْدٍ، وَعَطَاءٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

انتهى الاقتباس من تفسير ابن كثير.

وأخرج اللالكائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: {الذين أحسنوا الحسنى وزيادة} (يونس: ٢٦) قال: (الزيادة: النظر إلى وجه الله).

وأما رواية الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى {ويبقى وجه ربك} قال: يبقى ما يريد به وجهه. فلا يثبت عن ابن عباس والضحاك لم يلق ابن عباس فضلا عن أن سند الرواية عنه ضعيف.

وقال الإمام الطبري في كتابه: "التبصير في معالم الدين": "فإن قال لنا قائل: فما الصواب في معاني هذه الصفات التي ذكرت، وجاء ببعضها كتاب الله عز وجل ووجهه، وجاء ببعضها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قيل: الصواب من هذا القول عندنا: أن نثبت حقائقها على ما نعرف من جهة الإثبات ونفي التشبيه، كما نفى عن نفسه جل ثناؤه فقال: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} إلى أن قال: " فنثبت كل هذه المعاني التي ذكرنا أنها جاءت بها الأخبار والكتاب والتنزيل على ما يُعقل من حقيقة الإثبات، وننفي عنه التشبيه فنقول: يسمع جل ثناؤه الأصوات، لا يخرق في أذن، ولا جارحة كجوارح بني آدم. وكذلك يبصر الأشخاص ببصر لا يشبه أبصار بني آدم التي هي جوارح لهم. وله يدان ويمين وأصابع، وليست جارحة، ولكن يدان مبسوطتان بالنعم على الخلق، لا مقبوضتان عن الخير، ووجه لا كجوارح بني آدم التي من لحم ودم. ونقول: يضحك إلى من شاء من خلقه، لا تقول: إن ذلك كشر عن أنياب، ويهبط كل ليلة إلى سماء الدنيا " انتهى

فالوجه ثابت لله عز وجل في كتابه الكريم، وفي سنة نبيه العظيم عليه الصلاة والسلام، وأجمع على ذلك سلفنا رضي الله تبارك وتعالى عنهم، وخالف في ذلك المتأخرون، أو خالف في ذلك الخلف جميعاً.

وصفة الوجه لله عز وجل صفة ذاتية خبرية، وليست صفة فعلية، بل هي صفة ذاتية، بمعنى أنها لازمة لذاته منذ الأزل وإلى الأبد، فهي لازمة له أولاً وآخراً ولا تنفك عنه، فهي ليست من صفات الأفعال التي إذا شاء الله تعالى فعلها وإذا شاء لم يفعلها كصفة الكلام والضحك والغضب والإتيان والنجى والسرور والفرح، وغير ذلك، فهذه صفات فعلية إذا شاء فعلها وإذا شاء لم يفعلها، بخلاف الصفات الذاتية اللازمة له، والتي لا تنفك عنه سبحانه وتعالى.

وثبتت هذه الصفة كغيرها من الصفات الخبرية بكتاب الله عز وجل، قال: [قال الله عز وجل ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]] فهذه الآية أثبتت أن الله تبارك وتعالى وجهاً.

قال: [وقال ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]]. أي: وجه الله تبارك وتعالى.

قال: [عن أبي موسى: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه -يعني: يخفض الميزان ويرفعه- يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور، لو كشفها -أي: لو كشف هذا الحجاب- لأحرقت سبحات وجهه (زاد عبد الله): كل شيء أدركه بصره.] (فأثبت في هذا الحديث أن له وجهاً).

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث طويل: (ما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)، فإذا رفع هذا الحجاب رأى الناس ربهم تبارك وتعالى وذلك في الآخرة. أي المؤمنون.

وهذا الحديث قطعة من حديث طويل عند البخاري ومسلم في أبواب رؤية الرب تبارك وتعالى لأهل الإيمان.

ويقول ابن عثيمين- رحمه الله-: إن قلت المراد بالوجه الذات فيخشى أن تكون حرفت، وهذا التحريف يستلزم التعطيل، وإن أردت بالوجه نفس الصفة -أي: صفة الوجه- وقعت في محذور، وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدر الله حق قدره حيث قالوا: إن الله يفنى إلا وجهه.

يقول: والجواب: إن أردت بقولك إلا ذاته يعني: أن الله تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله، فهذا صحيح، ويكون هنا عبر بالوجه عن الذات لمن له وجه. أي: بذات لها وجه.

وإن أردت بقولك الذات: أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه، فهذا تحريف وهو غير مقبول.

أي: أن ابن عثيمين مشى على قاعدة: أن السلف يشبّهون الصفة ولازمها، فهو يقول: إذا أردت بالوجه الذات فلا بأس بهذا المراد إذا كنت تثبت أن هذه الذات لها وجه، وأما إذا قصدت أن الوجه هنا يعني الذات المجردة عن الصفة فهذا تحريف وتعطيل.

إذاً: لا بأس أن تقصد بالوجه الذات، ولكن مع الإيمان بأن هذه الذات لها وجه.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: (حجاب النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) وسبحات وجهه أي: بهاء وعظمته وجلاله ونوره.

وقوله: (ما انتهى إليه بصره من خلقه) فبصره ينتهي إلى كل شيء. يعني: لو أن الله كشف هذا الحجاب -الذي هو من نور- لأحرقت سبحات وجهه جميع المخلوقين؛ لأن بصره ينتهي إلى جميع المخلوقين، وعليه فلو كشف الله هذا الحجاب -الذي هو النور أو النار- لاحترق كل شيء في الأرض.

ولهذا نقول: هذا الوجه وجه عظيم، ولا يمكن أبداً أن يماثل أوجه المخلوقات.

وبناء على هذا نقول: من عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجهاً حقيقة، وقد أخذنا هذا ونأخذه من قوله تعالى ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وهذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين؛ لقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

[الشورى: ١١]. فهذا نفي للمثلية بين الخالق والمخلوق، ونحن نجهل كيفية هذا الوجه؛ لقوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا

﴿طه: ١١٠﴾].

فإن حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه، أو أن يتحدث عنها بلسانه فهو مبتدع ضال؛ لأن هذا ليس طريق السلف، وهو قول على الله من غير علم، وقد حرم الله علينا أن نقول عليه ما لا نعلم، كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فالتعرض لذكر كيفية الوجه لله عز وجل قول على الله بغير علم. وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] أي: أنك مسئول على كل هؤلاء.

قال الشيخ العلامة ابن عثيمين في تفسيره " وقوله تعالى: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} فيه إثبات الوجه لله - سبحانه وتعالى - ولكنه وجه لا يشبه أوجه المخلوقين، لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} يعني أنت تؤمن بأن الله وجهاً، لكن يجب أن تؤمن بأنه لا يماثل أوجه المخلوقين بأي حال من الأحوال، لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} ولما ظن بعض أهل التعطيل أن إثبات الوجه يستلزم التمثيل أنكروا أن يكون لله وقالوا: المراد بقوله {ويبقى وجه ربك} أي ثوابه، أو أن كلمة {وجهه} زائدة، وأن المعنى: ويبقى ربك! ولكنهم ضلوا سواء السبيل، وخرجوا عن ظاهر القرآن وحرفوه وخرجوا عن طريق السلف الصالح، ونحن نقول: إن الله وجهاً، لإثباته له في هذه الآية، ولا يماثل أوجه المخلوقين لنفي المماثلة في قوله: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} وبذلك نسلم ونجري النصوص على ظاهرها، المراد بها، وقوله: {ذو الجلال} أي: ذو العظمة {والإكرام} أي: إكرام من يطيع الله - عز وجل - كما قال تعالى: {أولئك في جنات مكرمون} فالإكرام أي أنه يكرم من يستحق الإكرام من خلقه، ويحتمل أن يكون لها معنى آخر وهو أنه يُكْرَم من أهل العبادة من خلقه، فيكون الإكرام هذا المصدر صالحاً للمفعول والفاعل، فهو مكرم ومكرم .

وقال ايضاً: "[الحلف باسم من أسماء الله فهذه واضحة ، مثل : والله ، والرحمن ، والعزیز ، والسميع ، والبصير ، كذلك بصفة من صفاته مثل : وعزة الله لأفعلن كذا وكذا ، أما الصفات الخبرية المحضة فلا يحلف بها إلا الوجه ؛ فلا يحلف بيد الله مثلاً ولا بعين الله ، إلا الوجه ، لأن الوجه يطلق على الذات كما في قوله تعالى : { كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام } ، { كل شيء هالك إلا وجهه } .

فيجوز أن يحلف بوجه الله ، فيقول : ووجه الله ، أو بوجه الله لأفعلن كذا وكذا .

الأسماء إذن يحلف بها ، الصفات المعنوية يحلف بها ،

الصفات الخبرية المحضة كالوجه ، واليدين ، والعينين ، واليدين ، والساق ، والقدم لا يحلف بها إلا الوجه ، ووجه التفريق بينه وبين غيره أن الوجه يطلق على الذات ، فلو قال : بوجه الله ، فكأنما قال : بالله]. (من تعليق الشيخ على "القواعد والأصول الجامعة ") .

وقوله: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) يقول تعالى ذكره: إليه يَفْرَعُ بِمَسْأَلَةِ الحاجات كل من في السموات والأرض، من مَلِكٍ وإنسٍ وحنّ وغيرهم، لا غنى بأحد منهم عنه.

اخرج الطبري عن قتادة، قوله: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) ()، لا يستغني عنه أهل السماء ولا أهل الأرض، يُحْيِي حَيًّا، وَيُمِيتُ مَيِّتًا، ويربي صغيرًا، ويدلّ كبيرًا، وهو مُسْأَلُ حاجات الصالحين، ومنتهى شكواهم، وصريخ الأخيار.

١ - مراتب التقدير يعني مراتب الكتابة.

فالله - عز وجل - جعل كتابته للأشياء لها خمس أحوال:

١- الكتابة الأولى: وهي أَوْلَاهَا وَأَقْدَمُهَا وَأَعْظَمُهَا كِتَابَةُ اللَّهِ - عز وجل - مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة في اللوح المحفوظ، وهذه هي الكتابة التي كانت قبل الخلق، وهذه الكتابة لا تتبدل ولا تتغير، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

فيجد العبد ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ من خير أو شر.

٢- الكتابة الثانية: كِتَابَةُ لِمَقَادِيرِ الْخَلْقِ مِنْ حَيْثُ الشَّقَاوَةُ وَالسَّعَادَةُ، ونعني بالخلق خاصة المكلفين.

وهذه التي تأتي فيها أحاديث الميثاق وأنَّ الله - عز وجل - استخرج ذرية آدم من صلبه فنثرهم أمامه كهيئة الدُّرِّ وأخذ عليه أن لا يشركوا به شيئاً سبحانه وتعالى، وَقَبَضَ قَبْضَةً إِلَى الْجَنَّةِ وَقَبْضَةً إِلَى النَّارِ وَكُتِبَ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَكُتِبَ أَهْلُ النَّارِ، ونحو ذلك مما جاء في السَّنة من بيان ذلك.

هذا تقديرٌ بَعْدَ الْأَوَّلِ، وهو قبل أن يُخْلَقَ جَنْسُ الْمَكْلُوفِينَ أَيَّ مِنَ الْإِنْسَانِ.

لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ - عز وجل - آدم حصل ذلك، حصل هذا التقدير العام لهم.

٣- الكتابة الثالثة: وهي التقدير العمري، والعُمُري هو الذي يكون والإنسان في بطن أمه فَإِنَّ النُّطْفَةَ إِذَا صَارَتْ فِي الرَّحِمِ وَبَلَغَتْ ثَنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً أَتَاهَا مَلَكٌ، فأمره الله - عز وجل - بكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد.

وهذه أيضاً جاءت في حديث ابن مسعود المشهور الذي فيه (أَنَّ الْمَلَكَ يَأْتِي بَعْدَ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ؛ يعني بعد عشرين ومائة، فيأتي فيكتب رزق الإنسان وأجله وعمله وشقي أو سعيد، يُؤْمَرُ بِكُتْبِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ).

هذه الكتابة العُمُرية هي تفصيلٌ لما في اللوح المحفوظ، لأنَّ الذي في اللوح المحفوظ شامل لكل المخلوقات، وهذا مُتَعَلِّقٌ بِهَذَا الْمَخْلُوقِ الْمَعِينِ وحده.

لهذا قال العلماء: إِنَّ هَذِهِ تَفْصِيلٌ، فذَاكَ فِيهِ الْجَمِيعُ، وهذا للإنسان المعين بخصوصه، قالوا تفصيل ولك أن تقول تخصيص.

٤- الكتابة الرابعة: الكتابة السنوية، والكتابة السنوية هي التي تكون في ليلة القدر قال - عز وجل - ﴿حَمِّ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ إِنََّّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنََّّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ {الدخان: ١-٤}.

وهذه تُكْتَبُ فِيهَا الْمَقَادِيرُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ.

من السَّنَةِ إِلَى السَّنَةِ.

إيش معنى ذلك؟

معناها أَنَّ اللَّهَ - عز وجل - يوحى إلى ملائكته بأن يكتبوا أشياء مما في اللوح المحفوظ فتكون بأيديهم مما سيحصل للناس.

٥- الكتابة الخامسة: هي التقدير الأخير وهي التقدير اليومي.

وعن ابن عباس، قوله: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) قال: يعني مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة، كل يوم هو في ذلك.
وقوله (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)، يقول تعالى ذكره: هو كل يوم في شأن خلقه، فيفرج كرب ذي كرب، ويرفع قوماً، ويخفض آخرين، وغير ذلك من شئون خلقه.
وأخرج الطبري عن عبيد بن عمير، (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) قال: يجيب داعياً، ويعطي سائلاً أو يفكّ عانياً، أو يشفي سقيماً.

واستدل له أهل العلم بقوله سبحانه {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩].
إذا تبيّنت هذه المراتب فإنه قد ثبت في السنة أن الله - عز وجل - يزيد في العمر، ينسأ في الأثر، يبسط في الرزق، فقال صلى الله عليه وسلم «من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه» (٣) يعني الرزق صار يتغير والأثر العمر صار يتغير، وقال أيضاً في الحديث الآخر «إنّ العبد ليُحرم الرزق بالذنوب يصيبه» (٤) فمعناه فيه حرمان لبعض الرزق.
وهذا معنى قول الله - عز وجل - في آية سورة الرعد {يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩].
فنظر أهل العلم في ذلك فقالوا:
إنّ المراتب الثلاث الأولى هذه لا تتغير ولا تتبدل؛ يعني:
- الأول السابق القديم الذي في اللوح المحفوظ.
- وهؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار.
- وكذلك كتب الملك الكلمات الأربع.
لهذا جاء في آخر الحديث مُؤَكِّدًا صلى الله عليه وسلم على أنّها لا تتغير «وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» (٥)، الثلاث الأولى هذه ما تتغير.
إيش الذي يَتَغَيَّرُ ويتبدل ويحدث فيه المَخْوَ والإثبات والزيادة إلى آخِرِهِ ويؤثر فيه الدعاء وتؤثر فيه الأعمال الصالحة؟
هذا التقدير السنوي.

والتقدير السنوي في الحقيقة هو من التقدير الأول.
هو مِنَ اللوح المحفوظ؛ لكنه في اللوح المحفوظ وَجَدَ مُعَلَّقًا فصار بأيدي الملائكة مُعَلَّقًا.
وأما التقدير العمري فهو ما فيه النهاية؛ يعني ما كَتَبَهُ اللهُ - عز وجل - بما فيه نهاية العبد وما فيه نتيجة أثر الدعاء وأثر الأعمال إلى آخره مما قد يكون مُتَغَيِّرًا.
إذا فقول - عز وجل - {يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ} يعني مما في أيدي الملائكة من الصحف {يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ} وكذلك من التقدير اليومي.

إذا كان كذلك فهذا به تَفْهَمُ الأحاديث التي فيها تغيير الرزق وتغيير العمر والنَّسْءُ في الأثر أو حرمان الرزق بالذنوب ونحو ذلك " وقد ورد عن ابن مسعود أنّه قال (اللهم إن كنت كتبتني في أهل الشقاء فاعمني واثبتني في أهل السعادة) المعجم الكبير (٨٨٤٧)

وعن مجاهد قال: كل يوم هو يجب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا.

وعن قتادة قال: يخلق مخلقا، ويميت ميتا، ويحدث أمرا.

قال الطاهر بن عاشور: " والمعنى أن الناس تنقرض منهم أجيال وتبقى أجيال وكل باقٍ محتاج إلى أسباب بقائه وصلاح أحواله فهم في حاجة إلى الذي لا يفنى وهو غير محتاج إليهم . ولما أفضى الإخبار إلى حاجة الناس إليه تعالى أتبع بأن الاحتياج عام أهل الأرض وأهل السماء . فالجميع يسألونه ، فسؤال أهل السماوات وهم الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ويسألون رضى الله تعالى ، ومن في الأرض وهم البشر يسألونه نعم الحياة والنجاة في الآخرة ورفع الدرجات في الآخرة . وحذف مفعول { يسأله } لإفادة التعميم ، أي يسألونه حوائجهم ومهامهم من طلوع الشمس إلى غروبها . "

وقال العدوي: " وهذه الآية تبين لك عظمة ربك سبحانه وتعالى، فكل شيء في السماوات والأرض يسأل الله، أنا وأنت وأبي وأبوك وأخي وأخوك وأمي وأمك والخلائق أجمعون، الشمس والقمر، الملائكة والجن، والسمك والحيتان، والجراد والنمل والقمل والدود، كل ذلك يسأل الله سبحانه وتعالى في آن واحد، والله يجيبه، والله يسمعه، ويعلم سره ونجواه. أما أنا وأنت إذا حدثنا شخصان في آن واحد، نقول لأحدهما: اسكت، حتى ينتهي الآخر من حديثه، حتى أفهم مراده؛ لأنه كما قال سبحانه: { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ } [الأحزاب: ٤]. "

لكن ربنا سبحانه وتعالى ليس كذلك، فكل من في السماوات والأرض يسألون ربهم، وهو يسمعهم ويجيبهم . وقال الطاهر بن عاشور: " و { يوم } مستعمل مجازاً في الوقت بعلاقة الإطلاق ، إذ المعنى : كل وقت من الأوقات ولو لحظة ، وليس المراد باليوم الوقت الخاص الذي يمتد من الفجر إلى الغروب . "

وإطلاق اليوم ونحوه على مطلق الزمان كثير في كلام العرب كقولهم : الدهر يومان يوم نعيم ويوم يؤس . قال ابن عثيمين " يسأل الله من في السماوات والأرض، والذي في السماوات هم الملائكة يسألون الله - عز وجل - ومن سؤلهم أنهم { ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم } إلى آخره، ويسأله من في الأرض من الخلائق، وسؤال أهل الأرض لله - عز وجل - قسمان: الأول: السؤال بلسان المقال، وهذا إنما يكون من المؤمنين، فالمؤمن يسأل ربه دائماً حاجاته، لأنه يعلم أنه لا يقضيها إلا الله - عز وجل - وسؤال المؤمن ربه عبادة، سواء حصل مقصوده أم لم يحصل، فإذا قلت: يا رب أعطني كذا. فهذه عبادة، كما جاء في الحديث: «الدعاء عبادة» . وقال تعالى {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين } فقال {ادعوني} ثم قال: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي} وهذا دليل على أن الدعاء عبادة، النوع الثاني: دعاء بلسان الحال، وهو أن كل مخلوق مفتقر إلى الله ينظر إلى رحمته، فالكفار مثلاً ينظرون إلى الغيث النازل من السماء، وإلى نبات الأرض، وإلى صحة الحيوان، وإلى كثرة الأرزاق وهم يعلمون إنهم لا يستطيعون أن يجدوا ذلك بأنفسهم، فهم إذن يسألون الله بلسان الحال، ولذلك إذا مستهم ضراء اضطروا إلى سؤال الله بلسان المقال {وإذا غشيهم موج كالكظم دعاوا الله مخلصين له الدين}. {كل يوم هو في شأن} من يحصي الأيام؟ لا أحد إلا الله - عز وجل

- ومن يحصي الشهور؟ لا أحد إلا الله - عز وجل - {كل يوم هو في شأن}، يغني فقيراً، ويفقر غنياً، ويمرض صحيحاً، ويشفي سقيماً، ويؤمن خائفاً ويخوف آمناً، وهلم جرا، كل يوم يفعل الله تعالى ذلك، هذه الشئون التي تتبدل عن حكمة ولا شك، قال الله تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون} وقال تعالى: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} فنحن نؤمن أن الله لا يقدر قدراً إلا لحكمة، لكن قد نعلم هذه الحكمة وقد لا نعلم، ولهذا قال: {كل يوم هو في شأن}، ولكن اعلم أيها المؤمن أن الله تعالى لا يقدر لك قدراً إلا كان خيراً لك، إن أصابتك ضراء فاصبر وانتظر الفرج، وقل: الحمد لله على كل حال. وكما يقال: دوام الحال من المحال، فينتظر الفرج فيكون خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس هذا لأحد إلا للمؤمن .

وقال الشيخ عبد الكريم الحضير: "أي: "بنطق أو حال ما يحتاجون إليه" نعم من الذي يستغني عن الله -جل وعلا-؟ كل الخلائق بحاجة، فهم يسألونه سواء كانوا من أهل السماوات من الملائكة وغيرهم، أو من أهل الأرض كل يسأل، ما يحتاجون إليه "من القوة على العبادة" هذا بالنسبة لأهل السماوات والأرض أيضاً "والرزق والمغفرة" هذا بالنسبة لأهل الأرض؛ لأن أهل السماوات لا يسألون الرزق ولا يسألون المغفرة، وإنما يسألون القوة على العبادة، وقد يسألون الرزق لأهل الأرض والمغفرة لهم {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ} [٥) سورة الشورى] "وغير ذلك" فالمسألة لا شك أن كل إنسان بحاجة إلى خالقه ورازقه، بحاجة إلى ما يعنيه على أمر دينه ودنياه، ولا يمكن أن يستغني الإنسان عن ربه طرفة عين، سواء كان من أهل السماوات أو من أهل الأرض، سواء كان من الإنس أو الجن أو الدواب أو غيرهم. {كُلُّ يَوْمٍ} [٢٩) سورة الرحمن] يعني كل وقت {هُوَ فِي شَأْنٍ} المراد باليوم، ليس المراد به الزمن الخدد بأربع وعشرين ساعة، وإنما المراد به الوقت، كل الوقت مشغول في شأن من شئونه -جل وعلا-".

وقوله: (فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، يقول تعالى ذكره: فَبَآئِيَ نَعَمَ رَبِّكُمَا معشر الجن والإنس، التي أنعم عليكم من صرفه إياكم في مصالحكم، وما هو أعلم به منكم من تقليبه إياكم، فيما هو أنفع لكم تكذبان.

القول في تأويل قوله تعالى: { سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) } قال ابن الجوزي: "قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «سَنَفَعُ» بنون مفتوحة. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وعبد الوارث: [«سَيَفَعُ»] بياء مفتوحة. وقرأ ابن السميع، وابن يعمر، وابن أبي عبلة، وعاصم الجحدري، عن عبد الوارث: «سَيَفَعُ» بضم الياء وفتح الراء. قال الفراء: هذا وعيد من الله تعالى، لأنه لا يشغله شيء عن شيء .. قال الزجاج: الفراغ في اللغة على ضربين . أحدهما: الفراغ من شغل .

والآخر : القصد للشيء ، تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أي : قد زال شغلي به ، وتقول : سأفرغ لفلان ، أي : سأجعله قصدي ، ومعنى الآية : سنقصد لحسابكم . فأما «الثقلان» فهما الجن والإنس ، سُميا بذلك لأنهما ثقل الأرض . واختار ابن القيم المعنى الثاني .

قال الطبري : " اختلفت القراء في قراءة قوله : (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة وبعض المكيين (سَنَفْرُغُ لَكُمْ) بالنون . وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة (سَيَفْرغُ لَكُمْ) بالياء ، وفتحها ردًا على قوله : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، ولم يقل : يسألنا من في السموات ، فأتبعوا الخبر الخبر . والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى ، فبأيتيهما قرأ القارئ فمصيب . وأما تأويله : فإنه وعيد من الله لعباده وتهدد ، كقول القائل الذي يتهدد غيره ويتوعده ، ولا شغل له يشغله عن عقابه ، لأنفرغَ لك ، وسأفرغَ لك ، بمعنى : سأجد في أمرك وأعاقبك ، وقد يقول القائل للذي لا شغل له : قد فرغت لي ، وقد فرغت لشتمي : أي أخذت فيه ، وأقبلت عليه ، وكذلك قوله جل ثناؤه : (سَنَفْرُغُ لَكُمْ) : سنحاسبكم ، ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجن ، فنعاقب أهل المعاصي ، ونثيب أهل الطاعة . "

وأخرج عن ابن عباس ، قوله : (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) ، قال : وعيد من الله للعباد ، وليس بالله شغل ، وهو فارغ . وعن قتادة أنه تلا (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) قال : دنا من الله فراغ خلقه . وعن سعيد بن جبيرة : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ ، يقول : سأقصد لحسابكم . وعن الحسن البصري : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ ، مما أوعدناكم وأخبرناكم ، فنحاسبكم ونجازيكم ، ونُنجز لكم ما وعدناكم ، ونُوصل كلاً إلى ما وعدناه ، فيتم ذلك ، ويفرغ منه .

وقال مقاتل بن سليمان : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴾ ، يعني : سنفرغ لحساب الإنس والجن ، ولم يعن به الشياطين ؛ لأنهم هم أغووا الإنس والجن ، وهذا من كلام العرب يقول : سأفرغ لك . وإنه لفارغ قبل ذلك ، وهذا تهديد ، والله تعالى لا يشغله شيء ، يقول : سيفرغ الله في الآخرة لحسابكم ، أيها الثقلان . عن جعفر بن محمد الصادق : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴾ سُمي الجن والإنس : ثقلين ؛ لأنهما مُثقلان بالذنوب . (تفسير النعيلي والبغوي) .

وقال مقاتل بن سليمان : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴾ ... يعني : الجن والإنس . قال الطاهر بن عاشور : " والفراغ للشيء : الخلو عما يشغل عنه ، وهو تمثيل للاعتناء بالشيء ، شبه حال المقبل على عمل دون عمل آخر بحال الوعاء الذي أفرغ مما فيه ليملأ بشيء آخر . وهذا التمثيل صالح للاستعمال في الاعتناء كما في قول أبي بكر الصديق لابنه عبد الرحمان أفرغ إلى أضيافك (أي تخل عن كل شغل لتشتغل بأضيافك وتتوفر على قراهم) وصالح للاستعمال في الوعيد وقرأ الجمهور { سنفِرغ } بالنون . وقرأه حمزة والكسائي بالياء المفتوحة على أن الضمير عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات .

وكتب { أيه } في المصحف بهاء ليس بعدها ألف وهو رسم مراعى فيه حال النطق بالكلمة في الوصل إذ لا يوقف على مثله ، فقرأها الجمهور بفتحة على الهاء دون ألف في حالتي الوصل والوقف . وقرأها أبو عمرو والكسائي بألف بعد الهاء في الوقف . وقرأه ابن عامر بضم الهاء تبعاً لضم الياء التي قبلها وهذا من الإتياع .

وقال البيضاوي : أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، وفيه تهديد ، مستعار من قولك لمن تهدده : سأفرغ لك ، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه ، وأجد فيه ، والثقلان : الإنس والجن ، سمياً بذلك لثقلهما على الأرض .
وقال ابن عطية : " و " الثقلان " الإنس والجن ويقال لكل ما يعظم امره ثقل ومنه " {أخرجت الأرض أثقالها} (الزلزلة ٢) وقال النبي عليه السلام (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي) .

وقيل سموا بذلك لان الذنوب تثقلهم وقيل لعظم شأنهم بالنسبة لبقية المخلوقات على الارض لانهم اهل الاختبار والامتحان وهم محل الثواب والعقاب .

وقال الشيخ ابن عثيمين : " هذه الجملة المقصود بها الوعيد، كما يقول قائل لمن يتوعده سأتفرغ لك، وأجازيك. وليس المعنى أن الله تعالى يشغله شأن عن شأن ثم يفرغ من هذا، ويأتي إلى هذا، هو سبحانه يدبر كل شيء في آن واحد في مشارق الأرض ومغاربها وفي السماوات، وفي كل مكان يدبره في آن واحد، ولا يعجزه. فلا تتوهم أن قوله: {سأفزعكم} أنه الآن مشغول وسيفزع. بل هذه جملة وعيدية تعبر بها العرب، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وفي قوله: {سأفزعكم} من التعظيم ما هو ظاهر حيث أتى بضمير الجمع، {سأفزعكم} تعظيماً لنفسه - جل وعلا - وإلا فهو واحد .

وقال الشيخ عبد الكريم الحضير : " سنقصده لحسابكم، وإلا فالله - جل وعلا- لا ينشغل بشيء؛ لأن مقتضى الفراغ أن يكون مشغولاً بما قبله، الفراغ للشيء مقتضاه أن يكون مشغولاً بما قبله، وهذا لائق بالمخلوق، لكنه لا يليق بالله - جل وعلا-، وإنما المراد به سنقصده لحسابكم؛ لأنه مع كونه - جل وعلا- كل يوم في شأن بالنسبة لآحاد الناس وأفرادهم، لآحاد الخلائق كلها، يصرف أمورها، لكنه لم ينشغل بذلك - جل وعلا-، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [(٨٢) سورة يس] فلا يقتضي ذلك شغلاً منه حتى يفرغ منه، لا، قال: سنقصده لحسابكم، وإنما جاء الخطاب على حسب ما يفهمون .

وقال القرطبي : " هذه السورة و (الاحقاف) و (قل أوحى) دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالانس سواء، مؤمنهم كمؤمنهم، وكافرهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك .

وقوله: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

قال الطبري : " فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعمها عليكم، من ثوابه أهل طاعته، وعقابه أهل معصيته تكذبان؟".
وقال الطاهر بن عاشور : " تكرير لنظائره وليس هو خطاباً للثقلين ولا تذيلاً للجملة التي قبله إذ ليس في الجملة التي قبله ذكر نعمة على الثقلين بل هي تهديد لهما .

قوله تعالى : { يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) }

جاء في موسوعة التفسير " اختلف في قوله : ﴿يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾ على أقوال :

الأول :معناه: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا .وهو مروي عن ابن عباس

الثاني :معناه: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربوا واخرجوا منها، لكنكم لا تقدرن .وهو مروي عن الضحاك

الثالث :معنى قوله : ﴿لا تنفذون﴾ لا تخرجون من سلطاني .وهو مروي عن ابن عباس ايضا

الرابع :إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا. وإنما يقال لهم هذا يوم القيامة.

وقد ذكر ابن القيم الأقوال الثلاثة الأولى، ثم وجهها بقوله: «وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا». ثم رجح -مستنداً إلى النظائر، والسياق، وإلى الدلالة العقلية -القول الرابع، فقال: «وفي الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض، وأحاط سراق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً، كما قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣] ... وهذا القول أظهر ... وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول، فإن قبلها: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ الآية، وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، وهذا في الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر".وهو مروي عن الضحاك ايضا

قال ابن جرير : " فقال بعضهم: معنى ذلك : إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض، فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم؛ فجوزوا ذلك، فإنكم لا تجوزونه إلا بسلطان من ربكم. قالوا : وإنما هذا قول يقال لهم يوم القيامة. قالوا: ومعنى الكلام: سنفرغ لكم أيها الثقلان، فيقال لهم (يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا)".وهو قول الضحاك

وقال الطاهر بن عاشور : " والمعشر : اسم للجمع الكثير الذي يُعد عشرة عشرةً دون آحاد .

وهذا إعلان لهم بأنهم في قبضة الله تعالى لا يجدون منجى منها ، وهو ترويع للصالحين والمصلين من الجن والانس بما يترقبهم من الجزاء السيئ لأن مثل هذا لا يقال لجمع مختلط إلا والمقصود أهل الجناية منهم فقوله : { يا معشر الجن والانس } عام مراد به الخصوص بقرينة قوله بعده { يرسل عليكم شواظ } [الرحمن : ٣٥] الخ .

والنفوذ والنفوذ : جواز شيء عن شيء وخروجه منه . والشرط مستعمل في التعجيز ، وكذلك الأمر الذي هو جواب هذا الشرط من قوله : { فانفذوا } ، أي وأنتم لا تستطيعون الهروب .

والمعنى : إن قَدَرْتُمْ على الانفلات من هذا الموقف فافلتوا . وهذا مؤذن بالتعريض بالتخويف مما سيظهر في ذلك الموقف من العقاب لأهل التضليل .

والأقطار : جمع قُطر بضم القاف وسكون الطاء وهو الناحية الواسعة من المكان الأوسع ، وتقدم في قوله تعالى : {ولو دخلت عليهم من أقطارها } في سورة الأحزاب (١٤) .

وذكر السماوات والأرض لتحقيق إحاطة الجهات كلها تحقيقاً للتعجيز ، أي فهذه السماوات والأرض أمامكم فإن استطعتم فاخرجوا من جهة منها فراراً من موقفكم هذا ، وذلك أن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من إحدى جهاتها . والأرض المذكورة هنا إما أن تكون الأرض التي في الدنيا وذلك حين البعث ، وإما أن تكون أرض الحشر وهي التي سماها القرآن الساهرة في سورة النازعات (١٤) ، وقال تعالى : { يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات } [إبراهيم : ٤٨] ، وإما أن يكون ذلك جارية مجرى المثل المستعمل للمبالغة في إحاطة الجهات كقول أبي بكر الصديق : «أي أرض تقبلي ، وأي سماء تظلي» .

قال ابو حيان : " وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ : إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ، عَلَى خِطَابِ تَثْنِيَةِ الثَّقَلَيْنِ وَمُرَاعَاةِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْجُمُهورِ : عَلَى خِطَابِ الْجَمَاعَةِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ، لِأَنَّ كَلَامًا مِنْهُمَا تَحْتَهُ أَفْرَادٌ كَثِيرَةٌ ، كَقَوْلِهِ : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا } [الحجرات (٩)] .

قوله تعالى { لا تنفذون إلا بسلطان }

في قوله : ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أقوال : الأول : بيّنة فقد روى ابن جرير عن ابن عباس ، في قوله : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) يقول : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموه ، لن تعلموه إلا بسلطان ، يعني البيّنة من الله جلّ ثناؤه . الثاني : بحجة . وهو قول مجاهد وعكرمة .

الثالث : بملك فقد روى ابن جرير عن قتادة بن دعامة - من طريق معمر - ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ، قال : إلا بملكه من الله .

ووجه ابن عطية القول الثاني ، فقال : "والسلطان : هو القوة على غرض الإنسان ، ولا يُستعمل إلا في الأعظم من الأمر والحُجج أبداً من القوي في الأمور ، ولذلك يعبر كثير من المفسرين عن السلطان بأنه الحُجّة" .

قال ابن جرير : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : إلا بحجة وبيّنة ، لأن ذلك هو معنى السلطان في كلام العرب ، وقد يدخل الملك في ذلك ، لأن الملك حجة " .

وروى ابن جرير عن سفيان (إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) قال : من أطرافها . وقوله جلّ ثناؤه (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا) يقول : من أطرافها .

وقال الطاهر بن عاشور : " وهذه المعاني لا تتنافى ، وهي من حدّ إعجاز القرآن .

وجملة { لا تنفذون إلاّ بسلطان } بيان للتعجيز الذي في الجملة قبله فإن السلطان : القدرة ، أي لا تنفذون من هذا

المأزق إلا بقدرة عظيمة تفوق قدرة الله الذي حشركم لهذا الموقف ، وأتى لكم هاته القوة .

وهذا على طريق قوله : { وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون } [الشعراء : ٢١٠ ، ٢١١] ، أي ما صعدوا إلى السماء فيتنزلوا به " .

وقال الصابوني : " ((جنح بعض المتأخرين في هذه الأيام إلى تفسير الآية تفسيراً خاطئاً فزعوا أن الإنسان يمكنه الصعود إلى السموات وفسروا " السلطان " بالعلم وهو مخالف لأقوال المفسرين ، ويرده سياق الآية وسباقها ، فإن الآية سبقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها : { سنفرغ لكم آية الثقلان } وقوله بعدها : { يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس } وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة " .

قال العدوي : " وبهذه الآية وبضمينتها في سورة (ص) استدلل الشنقيطي رحمه الله تعالى على بطلان المدعى الذي فحواه: أن الإنسان صعد إلى القمر، ووصف هذه الأقوال بأنها أكاذيب، محتجاً بقوله تعالى: { أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ } [ص: ١٠] والارتقاء: الصعود، والأسباب: الطرق الموصلة إلى السماء، ثم قال تعالى: { جُنْدٌ مَا } [ص: ١١] نُكِّرَ الجند للتعميم، { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } [ص: ١١] ، أي: أن من يفكر في غزو السماء واختراق السماء الدنيا محكوم عليه بالهزيمة، كما قال تعالى: { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } [ص: ١١] ، واستظهر أيضاً بقوله تعالى في هذه السورة: { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ } [الرحمن: ٣٥] ، والله أعلم بصدق هذا المدعى الذي ادعوه وهو الصعود إلى القمر، فقد ثارت في بعض الأزمنة محاولات لغزو الفضاء يعرفها كبار السن منكم إبان التنافس في غزو الفضاء بين الروس والأمريكان، فقد كانت ترسل الأولى سفناً للفضاء والأخرى ترسل، وبعد زوال ما يسمى: بالاتحاد السوفييتي، ماتت كل هذه الأشياء، ولم يعد لها الآن أي ذكر على الإطلاق.

وقد ذكر أن بعض الصينيين ألف كتاباً يثبت فيه: أن هذه كانت محاولات تجريبها المخابرات الأمريكية والأمريكان في صحراء نيفادا، وليس للصعود على القمر حقيقة، فالله أعلم بصحة هذه الادعاءات، هو وحده سبحانه أعلم.

أما كوننا نجبر على تصديق الأمريكان في دعواهم فليس عندنا في ديننا ما يجبرنا على تصديقهم، فهم من حيث الأصل كفار، لهم أخبار تصدق وأخبار تكذب؛ إذ من شأنهم القول المشحون بالصدق مع الأكاذيب، وليس في ديننا ما يثبت ذلك، أما ما ينفيه فقد سمعتم ما ينفيه، والمسألة ما زالت محل نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم " .

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير : " يا معشر الجن والإنس هنا قدم الجن، وفي معارضة القرآن {لَّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ} [(٨٨) سورة الإسراء] قدم الإنس، لماذا قدم الإنس هناك وقدم الجن هنا؟ هناك في المعارضة المسألة تحتاج إلى فصاحة وبيان والإنس بما أليق، فقدموا، وهنا: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا} [(٣٣) سورة الرحمن] هنا فيه ما يحتاج إلى قدرة والجن في مثل هذا أقدر من الإنس، يعني النفوذ إلى جهة العلو قدرة الجن أعظم من قدرة

الإنس عليها بدليل أنهم يسترقون السمع، يعني كانوا يسترقون السمع وما حصل هذا من الإنس، هل استطاع إنسي أن يصعد إلى السماء فيسترق السمع؟ ما استطاع، فقدم الجن هنا: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا} [(٣٣) سورة الرحمن] تخرجوا {مِنْ أَقْطَارِ} [(٣٣) سورة الرحمن] من "نواحي" السماوات والأرض {فَانْفُذُوا} [(٣٣) سورة الرحمن] أمر تعجيز، {لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} يعني بقوة، ولا قوة لكم على ذلك {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [(٣٣) سورة الرحمن] والكفار لما صنعوا ما صنعوا من المراكب الفضائية، وزعموا وادعوا أنهم وصلوا إلى الكواكب، وصلوا إلى القمر، وصلوا إلى المريخ، وصلوا إلى كذا، وقال من يستدل لهم بأن هذا ممكن أن عندهم سلطان، عندهم سلطان العلم، ووصلوا بواسطته ونفذوا، وهذا على القول بأن القمر في السماء، كما هو مفاد قوله -جل وعلا-: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} [(١٦) سورة نوح] يعني هو في السماء، يقولون: وصلوا إلى القمر وهو في السماء، وهل هو في السماء الدنيا أو في ما فوقها؟ كلام طويل لأهل التفسير، ومنهم من يرى أن القمر دون السماء وحيث لا إشكال، هم ما نفذوا، والذي يقر أن القمر في السماء يقول: إنهم نفذوا لكن بسلطان، ولا شك أن هذا جهل وضلال؛ لأن الأمر ليس أمر إمكان، إنما هو أمر تعجيز، {إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا} [(٣٣) سورة الرحمن] تخرجوا {مِنْ أَقْطَارِ} [(٣٣) سورة الرحمن] .

... {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا} [(٣٣) سورة الرحمن] جمع وعندنا جن وإنس تشية، النظر هنا إلى أفراد هذين الجنسين، فالجن جمع والإنس جمع فالنظر إلى مجموع الأفراد من الجنسين، ولذا قال: {تَنْفُذُوا} [(٣٣) سورة الرحمن] وقال: {فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [(٣٤) سورة الرحمن] تشية، فنظر إلى الجنسين {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا} [(٩) سورة الحجرات] اقتتلوا جمع بالنظر إلى أفراد الطائفتين جمع، وبالنظر إلى الفريقين والطائفتين تشية، وجاء هنا الجن والإنس تشية، وأعيد الضمير عليهما أحياناً بالثنى، وأحياناً بالجمع نظراً إلى هذا، فالتشية نظر إلى الجنسين، والجمع نظر إلى أفراد الجنسين .

قال ابن جرير: "وقوله: {فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، يقول تعالى ذكره: فَبَآئِيَ نعم ربكما تكذبان معشر الثقلين التي أنعمت عليكم -من التسوية بين جميعكم، لا يقدرُونَ على خلاف أمر أَرَادَهُ بكم- تكذبان ."

وقوله تعالى {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ} (٣٥) فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) {

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا} فثنى على اللفظ . وقد جمع في قوله: {إِنْ اسْتَطَعْتُمْ} على المعنى . فأما «الشَّوَاظُ» ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها: أنه لُهب النار ، (قال ابن عباس : إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ ، سَاقَهُمْ شَوَاظٌ إِلَى الْمَحْشَرِ . وَالشَّوَاظُ : لُهَبُ النَّارِ) . وقال مجاهد : هو اللهب الأخضر المنقطع من النار .

والثاني : الدُّخَانُ ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : النار المحضة ، قاله الفراء . وقال أبو عبيدة : هي النار التي تأجج لا دخان فيها ، ويقال : شواظ وشواظ .
وقرأ ابن كثير بكسر الشين؛ وقرأ أيضاً هو وأهل البصرة : «ونحاس» بالخفض ، والباقون برفعهما .
قال ابو حيان : " قَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ : نُرْسِلُ بِالنُّونِ ، عَلَيْنَا شَوَاطِئُ بِالنَّصْبِ ، مِنْ نَارٍ وَنَحَاسًا بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى شَوَاطِئِ ."
قال ابن الجوزي : " وفي «النحاس» قولان .

أحدهما : أنه دخان النار ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، والفراء وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ،
والزجاج ، ومنه قول الجعدي يذكر امرأة :

تُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلْيِ ... ط لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نَحَاسًا

وذكر الفراء في السليط ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه دهن السنام ، وليس له دخان إذا استُصبح به .

والثاني : أنه دهن السمسم .

والثالث : الزيت .

والثاني : أنه الصُّفْرُ المَذَابُ يُصَبُّ عَلَى رؤوسهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة . قال مقاتل :

والمراد بالآية : كفار الجن والإنس ، يرسل عليهما في الآخرة لهب النار والصُّفْرُ الذائب .

وقال ابن جرير : " وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : غُني بالنحاس : الدخان ، وذلك أنه جل ثناؤه

ذكر أنه يرسل على هذين الحيين شواظ من نار ، وهو النار المحضة التي لا يخلطها دخان . والذي هو أولى بالكلام أنه

توعدهم بنار هذه صفتها أن يتبع ذلك الوعد بما هو خلافها من نوعها من العذاب ، دون ما هو من غير جنسها ، وذلك

هو الدخان ، والعرب تسمي الدخان نحاسا بضم النون ، ونحاسا بكسرها ، والقراء مجمعة على ضمها (أي ان لفظة نحاس

لغة عند العرب لكنها لم ترد في القرآن)، ومن النحاس بمعنى الدخان ، قول نابغة بني دُبيان :

يَصْوَءُ كَصَوْءِ سِرَاجِ السَّلْيِ ط لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نَحَاسًا

يعني : دخانا .

وقوله : (فَلَا تَنْتَصِرَانِ) يقول تعالى ذكره : فلا تنتصران أيها الجن والإنس منه ، إذا هو عاقبكما هذه العقوبة ، ولا

تُستنقذان منه .

وقال ابو حيان : " الْجُمُهورُ وَنَحَاسٌ : بِالرَّفْعِ وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَالنَّحَعِيُّ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو : بِالْجَرِّ وَالْكَلْبِيُّ وَطَلْحَةُ

وَمُجَاهِدٌ : بِكَسْرِ نُونِ نَحَاسٍ وَالسَّيْنِ . وَقَرَأَ ابْنُ جُبَيْرٍ : وَنَحَسٌ ، كَمَا تَقُولُ : يَوْمَ نَحَسٌ ."

وقال ابن كثير : " ومعنى الآية لو ذهبتم هارين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة وزبانية جهنم ، بإرسال اللهب من النار ،

والنحاس المذاب عليكم ، لترجعوا فلا تجدون لكم ناصرا ."

وقال الشيخ عبد الكريم الحضير : " والظاهر من النحاس أنه المادة التي هي الصفر المذاب النحاس معروف ، النحاس

معروف نوع من أنواع المواد الصلبة كالحديد والصفر والفضة والذهب وغيره ، لكنه هو نحاس ، وخص النحاس لأنه هو

الذي يقبل الحرارة بسرعة، ولا يفقدها بسرعة، والأمر الثاني: أنه هو أشد المواد حرارة إذا أحمي، فإذا أذيب وصب عليهم -نسأل الله السلامة والعافية- على أن المراد به النحاس المعدن المعروف .

{فَلَا تَنْصِرَانِ} [(٣٥) سورة الرحمن] يعني لا "تمتنعان من ذلك" لا تمتنعان من ذلك، من الذي يستطيع من الجن أو الإنس أن يمتنع من الشواظ والنحاس؟ لا يستطيع أحد ذلك "بل يسوقكم إلى المحشر" هذه النار تسوق الناس إلى المحشر، وهذا الذي جعل المفسر يختار أن النحاس هو الدخان، الشواظ اللهب الذي لا دخان معه، أو معه، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه، يريد أن هذه نار تكون في آخر الزمان تحشر الناس إلى أرض المحشر، والذي يقول النحاس المراد به المعدن المعروف إذا أذيب يقول: هذا في النار {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ} [(١٩) سورة الحج] وأيضاً مثل هذا النحاس يذاب ويصب عليهم، ومن استمع إلى الغناء جاء في الخبر: ((صب في أذنه الآنك يوم القيامة)) الرصاص المذاب -نسأل الله العافية-.

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [(٣٦) سورة الرحمن] الآلاء النعم، وما ذكر تخويف، تهويل، تشديد، فأى نعمة في هذه النار؟ وأي نعمة في هذا الرصاص؟ وأي نعمة ..؟ نعم الذي يعتبر ويتعظ ويرعوي ويخاف من سوء العاقبة تكون له نعمة، فالتخويف بمثل هذا نعمة، ولذا جاء: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} [(٤٦) سورة الرحمن] فهذه وإن كانت في ظاهرها نقم إلا أنها في باطنها نعم .

قوله تعالى { فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)} قال ابو حيان: " فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ: جَوَابُ إِذَا مَحْدُوفٌ، أَيُّ فَمَا أَعْظَمَ الْهُولُ " .

{ فإذا انشقت السماء } أي فإذا انصدعت يوم القيامة لتنزل الملائكة منها ، لتحيط بالخالق من كل جانب { فكانت وردة كالدّهان } أي فكانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار ، ومثل الأديم الأحمر أي الجلد الأحمر ، قاله ابن عباس ، وذلك من شدة الهول ، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم .

قال القرطبي: "الدهان الدهن، عن مجاهد والضحاك وغيرهما .

والمعنى أنها صارت في صفاء الدهن، والدهان على هذا جمع دهن .

وقال سعيد بن جبير وقتادة: المعنى فكانت حمراء .

وقيل: المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدهن، أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لرققتها وذوبانها .

وقيل: الدهان الجلد الأحمر الصرف، ذكره أبو عبيد والفراء .

أي تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حر النار .

وقال الحسن: (كالدّهان) أي كصب الدهن فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا .

وقال زيد ابن أسلم: المعنى أنها تصير كعكر الزيت، وقيل: المعنى أنها تمر وتجي .

قال الزجاج: أصل الواو والراء والذال للمجئ واللاتيان.

وقال قتادة: إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر.

وقال ابن كثير: " وَقَوْلُهُ: {فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} أَي: تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدَّرْدِيُّ وَالْفِضَّةُ فِي السَّبَكِ، وَتَتَلَوَّنُ كَمَا تَتَلَوَّنُ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يُدْهَنُ بِهَا، فَتَارَةً حُمْرَاءَ وَصَفْرَاءَ وَزَرْقَاءَ وَخَضْرَاءَ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ".
فجمع بين الامرين بين كونها تذوب وبين كونها تتلون .

قال الشنقيطي: " ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة

كالدهان، وقوله: {وَرْدَةً} ، أي حمراء كلون الورد، وقوله {كَالدِّهَانِ} ، فيه قولان معروفان للعلماء.

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابة للجلد الأحمر في لونه.
والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به..

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشيها بحمرة الورد، وحمرة الأديم الأحمر.

قال بعض أهل العلم: إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة.

وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن الله وقد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها،
والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن.

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر.

وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه الله في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في
المعارج: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا، يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ} [المعارج: ٨]، والمهل شيء ذائب على كلا القولين
سواء قلنا: إنه دردي الزيت وهو عكره، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما.

وقد أوضح تعالى في الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا
بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف: ٢٩].

والقول بأن الورد تشبيه الفرس الكميت وهو الأحمر لأن حمرة تتلون باختلاف الفصول، فتشتد حمرة في فصل، وتقل
إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل.

وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية، وقول من قال: إنها
تذهب وتجيء معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا} [الطور: ٩]، ولكنه لا يخلو
عندي من بعد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة، جاء موضحا في آيات كثيرة كقوله تعالى: {إِذَا
السَّمَاءُ انشَقَّتْ} [الانشقاق: ١]، وقوله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ} [الحاقة: ١٥-١٦] وقوله:

{وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} [الفرقان: ٢٥] ، وقوله: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار: ١] ، وقد قدمنا الآيات

الموضحة لهذا في سورة ق في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [ق: ٦] .

وقال العدوي : " شبهت بالدهان من جانب ، وبالوردة من جانب آخر .

فلم تشقق السماء؟! قال الله سبحانه وتعالى: { وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا } [الفرقان: ٢٥]

فتتشقق السماء بالغمام وتنزل منها الملائكة .

ومن أهل العلم من قال: إنها تشقق لشدة الحر الذي فوقها، فتذوب كما يذوب الدهن الذي مسته الحرارة، فالدهن إذا

مسته الحرارة سال وانصهر، وتحول من الحالة الجامدة إلى الحالة السائلة، وفي هذا التحول تحت النار الشديدة تعتريه

ألوان، فيتلون أثناء تغيره من الحالة الجامدة إلى الحالة السائلة، فكذلك السماء مما يعترىها من حر جهنم تسيل وتكون

كالمهل، وتأخذ لون الورود لاحمرارها الزائد، وتتلون كما يتلون الدهن على حسب شدة لهب النار أو انخفاضها، فكما

اعتراها حر شديد أخذت لوناً، وإذا اعتراها حر آخر أخذت لوناً آخر، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يقول تعالى ذكره: فبأي قدرة ربكما معشر الجن والإنس -على ما أخبركم بأنه فاعل

بكم- تكذبان.

قوله تعالى : { فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ }

قال ابن الجوزي : "فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يسألون ليُعلم حالهم ، لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك .

والثاني : لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله لاشتغال كل واحد منهم بنفسه ، روي القولان عن ابن عباس .

والثالث : لا يسألون عن ذنوبهم لأنهم يعرفون بسيماهم ، فالكافر أسود الوجه ، والمؤمن أقر محجل من أثر وضوئه ، قاله

الفراء . قال الزجاج : لا يسأل أحد عن ذنبه ليستفهم ، ولكنه يسأل سؤال توبيخ " .

وقال ابن كثير : " وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: { هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [الْمُرْسَلَاتِ: ٣٥ ، ٣٦] ، فَهَذَا فِي

حَالٍ، وَثُمَّ حَالٌ يُسْأَلُ الْخَلِيقُ فِيهَا عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

[الْحَجَرِ: ٩٢ ، ٩٣] ؛ وَهَذِهِ قَالَ قَتَادَةُ: { فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ } ، قَالَ: فَذَلِكَ مَسْأَلَةٌ، ثُمَّ خْتِمَ

عَلَى أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا يَسْأَلُهُمْ: هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ لِأَنَّهُ أَعْلَمَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لِمَ عَمِلْتُمْ

كَذَا وَكَذَا؟ فَهَوَ قَوْلُ ثَانٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَا يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْمُجْرِمِ، يُعْرِفُونَ بِسِيمَاهُمْ.

وَهَذَا قَوْلٌ ثَالِثٌ. وَكَأَنَّ هَذَا بَعْدَ مَا يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَذَلِكَ الْوَقْتُ لَا يُسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، بَلْ يُقَادُونَ إِلَيْهَا (٣)

وَيُلْقَوْنَ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ } أَي: بِعَلَامَاتٍ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: يَعْرِفُونَهُمْ بِأَسْوَدَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ.

قُلْتُ: وَهَذَا كَمَا يَعْرِفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغُرَّةِ وَالْتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ.

وَقَوْلُهُ: {فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} أَيُّ: تَجْمَعُ الرِّبَانِيَّةُ نَاصِيَتَهُ مَعَ قَدَمَيْهِ، وَيُلْقُونَهُ فِي النَّارِ كَذَلِكَ.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُؤْخَذُ بِنَاصِيَتِهِ وَقَدَمَيْهِ (٤) ، فَيُكْسَرُ كَمَا يُكْسَرُ الْحَطْبُ فِي التَّنُورِ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يُجْمَعُ بَيْنَ نَاصِيَتِهِ وَقَدَمَيْهِ (٥) فِي سِلْسِلَةٍ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: يُجْمَعُ بَيْنَ نَاصِيَةِ الْكَافِرِ وَقَدَمَيْهِ، فَتَرْبُطُ نَاصِيَتُهُ بِقَدَمَيْهِ، وَيُقْتَلُ ظَهْرُهُ " .

قال الشنقيطي: " اعلم أولا: أن للسؤال المنفي في قوله هنا: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} ، وقوله: {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [القصص: ٧٨] ، أخص من السؤال المثبت في قوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ، لأن هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء.

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أن السؤال نوعان:

أحدهما سؤال التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب، والثاني هو سؤال الاستخبار والاستعلام.

فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام، لأن الله أعلم

بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: {أَخْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [المجادلة: ٦].

وعليه فالمعنى: {لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} ، سؤال استخبار واستعلام لأن الله أعلم بذنبه منه.

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن

الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ} [آل عمران: ١٠٦] ، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: {وَقَفَّوهُمْ إِثْمَ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمْ

الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [الصافات: ٢٤-٢٦] ، وقوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً، هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا

تُكَذِّبُونَ، أَفَسِحَّرَ هَٰذَا} [الطور: ١٣-١٥] ، وقوله: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [الأنعام: ١٣٠].

أما سؤال الموعودة في قوله: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ} [التكوير: ٨] ، فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الندب، لأنها

سئلت عن أي ذنب قتلت وهذا ليس من ذنبها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه، لأنها هي تقول لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلما.

وكذلك سؤال الرسل، فإن المراد به توبيخ من كذبهم وتقريعه، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته.

وقال العدوي: " للعلماء في ذلك مسالك: أحد هذه المسالك: أن المواقف يوم القيامة تتعدد وتنوع، فاليوم كآلف سنة

مما تعدون، فلا يمتنع أن يسأل هؤلاء في موطن، ويترك هؤلاء في موطن آخر.

والوجه الثاني من أوجه الجمع: أن الله سبحانه وتعالى لا يسأل العبد الجرم: هل عملت كذا أو لم تعمل كذا؟ لكن إذا سئل

سؤالاً يسأل للتوبيخ، وترك السؤال هو سؤال الاستفسار: هل عملت أم لم تعمل؟ أما هذا فقد يعكر عليه قول النبي

صلى الله عليه وسلم: (إن الله سبحانه وتعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس، ويقرره بذنوبه: عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول الله سبحانه: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهداء: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} ".

وقال الشيخ عبد الكريم الخضير: " يريد أن يقرر أن السؤال ليس للمجموع، سؤال واحد، ما ذنوبكم أيها الإنس، ما ذنوبكم أيها الجن، لا، يسأل كل واحد بعينه.. لأن السؤال فردي ((ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)) فالسؤال إفرادي، يخلو الرب -جل وعلا- بعده ويقرره، ويسأله ويجاسبه، وجاء في الحديث الصحيح: ((من نوقش الحساب عذب)) ((من نوقش الحساب عذب)) قالت عائشة -رضي الله عنها-: "وماذا عن قوله -جل وعلا-: {فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [(٨) سورة الإنشقاق]؟ قال -عليه الصلاة والسلام-: ((ذلك العرض))، ((ذلك العرض)) يعني ما هو بحساب هو مجرد عرض على الله -جل وعلا- والله -جل وعلا- يعرض على العبد ويقرره ببعض ذنوبه ثم يستترها عليه ويغفرها له".

وقوله: (فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يقول تعالى ذكره: فبأي نعم ربكما معشر الثقلين، -التي أنعم عليكم من عدله فيكم، أنه لم يعاقب منكم إلا مجرماً-.

قوله تعالى { يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) } قال ابن كثير: " وَهَذَا كَمَا يُعْرِفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ " .

قال ابن الجوزي: " قوله تعالى: { يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ } قال الحسن: بسواد الوجوه، وزرق الأعين { فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ } فيه قولان .

أحدهما: أن خزنة جهنم تجمع بين نواصيهم إلى أقدامهم من وراء ظهورهم، ثم يدفعونهم على وجوههم في النار، قاله مقاتل .

والثاني: يؤخذ بالنواصي والأقدام، فيسحبون إلى النار، ذكره الثعلبي . وروى مردويه الصائغ، قال: صلى بنا الإمام صلاة الصبح فقرأ سورة «الرحمن» ومعنا علي بن الفضيل بن عياض، فلما قرأ «يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ» خَرَّ عَلِيٌّ مغشياً عليه حتى فرغنا من الصلاة، فلما كان بعد ذلك قلنا له: أما سمعت الإمام يقرأ «خُورٌ مقصوراتٌ في الخيام»؟ قال: شغلني عنها «يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ» .

وقال الشنقيطي: " قوله: { بِسِيمَاهُمْ } أي بعلامتهم المميزة لهم، وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ} [آل عمران: ١٠٦]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ} [الزمر: ٦٠]، وقال تعالى: {وَتَرَاهُمْ ذُلَّةً مَّا هُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: ٢٧]، وقال تعالى:

{وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ} [عبس: ٤٢] ، لأن معنى قوله: {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} أي يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود ، وقال تعالى في زرقه عيونهم: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [طه: ١٠٢] .
وقال ايضا: " والنواصي : جمع ناصية وهي الشعر الذي في مقدم الرأس ، وتقدم في قوله تعالى : { ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها } في سورة هود (٥٦) .

والأخذ بالناصية أخذ تمكّن لا يفلت منه ، كما قال تعالى : { لئن لم ينته لنسفعن بالناصية } [العلق : ١٥] .
والأقدام : جمع قَدَم ، وهو ظاهر الساق من حيث تمسك اليد رجل الهارب فلا يستطيع انفلاتاً وفيه أيضاً يوضع القيد".
وقوله تعالى { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس -التي أنعم عليكم بها من تعريفه ملائكته أهل الإجرام من أهل الطاعة منكم، حتى خصوا بالإذلال والإهانة المجرمين دون غيرهم.

قوله تعالى { هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) }
قال ابن الجوزي : " قوله تعالى : { هذه جهنّم } أي : يقال لهم . هذه جهنّم { التي يكذب بها المجرمون } يعني المشركين ، { يَطُوفُونَ بينها } وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران الجوني : «يَطُوفُونَ» بياءٍ مضمومة مع تشديد الواو؛ وقرأ الأعمش مثله إلا أنه بالتاء .

قوله تعالى : { وبين حميمٍ آنٍ } قال ابن قتيبة : الحميم : الماء الحارّ ، والآني : الذي قد انتهت شدّة حرّه . قال المفسرون : المعنى أنهم يسعون بين عذاب الحميم وبين الحميم ، إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم الشديد الحرارة .
وقال ابن كثير : " أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشهدونها عياناً، يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَضَعِيرًا وَتَحْقِيرًا.

وقوله: { يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ } أي: تارة يُعَذَّبُونَ فِي الْجَحِيمِ، وَتَارَةً يُسَقَوْنَ مِنَ الْحَمِيمِ، وَهُوَ الشَّرَابُ الَّذِي هُوَ كَالنَّحَاسِ الْمَذَابِ، يُقَطِّعُ الْأَمْعَاءَ وَالْأَحْشَاءَ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: { إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ } [غافر: ٧١، ٧٢] .

وقوله: { آنٍ } أي: حارٌّ وَقَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْحَرَارَةِ، لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: { يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ } قَدْ انْتَهَى غَلِيهِ، وَاشْتَدَّ حَرُّهُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ، وَالثَّوْرِيُّ، وَالسُّدِّيُّ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ أَتَى طَبْحُهُ مِنْدُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ: يُؤْخَذُ الْعَبْدُ فَيَحْرُكُ بِنَاصِيَتِهِ فِي ذَلِكَ الْحَمِيمِ، حَتَّى يَذُوبَ اللَّحْمُ وَيَبْقَى الْعَظْمُ وَالْعَيْنَانِ فِي الرَّأْسِ. وَهِيَ كَالَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: { فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ } . والحميم الآن: يعني الحار. وَعَنِ الْقُرْطُبِيِّ رَوَايَةٌ أُخْرَى: { حَمِيمٍ آتٍ } أي: حاضِرٌ. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ أَيْضًا، وَالْحَاضِرُ، لَا يُنَافِي مَا رَوَى عَنِ الْقُرْطُبِيِّ أَوَّلًا أَنَّهُ الْحَارُّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: { تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ } [الغاشية: ٥] أَيْ حَارَّةً شَدِيدَةً الْحَرِّ لَا تُسْتَطَاعُ. وَكَقَوْلِهِ: { غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ } [الأحزاب: ٥٣] يَعْنِي: اسْتَوَاءَهُ وَنُضْجُهُ. فَقَوْلُهُ: { حَمِيمٍ آتٍ } أي: حَمِيمٌ حَارٌّ

جداً". فالمعنى انه حاضر ومتناه في شدة حرارته فالآية اذا احتملت أكثر من معنى ولا تعارض بينها فيحمل معنى الآية على كلا المعنيين.

قال الطاهر بن عاشور : " والطواف : تردد المشي والإكثار منه ، يقال : طاف به ، وطاف عليه ، ومنه الطواف بالكعبة ، والطواف بالصفاء والمروة ، قال تعالى : { فلا جناح عليه أن يطوف بهما } وتقدم في سورة البقرة (١٥٨) .
والحميم : الماء المغلى الشديد الحرارة .

والمعنى : يمشون بين مكان النار وبين الحميم فإذا أصابهم حرّ النار طلبوا التبرّد فلاح لهم الماء فذهبوا إليه فأصابهم حرّه فانصرفوا إلى النار ذوّالين وهذا كقوله : { وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل } [الكهف : ٢٩] .
وآن : اسم فاعل من آنى ، إذا اشتدت حرارته .

وقوله : (فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يقول: فبأيّ نعم ربكما معشر الجنّ والإنس التي أنعمها عليكم –بعقوبته أهل الكفر به، وتكريمه أهل الإيمان به – تكذبان. قاله ابن جرير
وقال ابن كثير : " وَلَمَّا كَانَ مُعَاقِبَةُ الْعُصَاةِ الْمُجْرِمِينَ وَتَنْعِيمُ الْمُتَّقِينَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ، وَكَانَ إِندَارُهُ لَهُمْ عَذَابُهُ وَبَاسُهُ مِمَّا يَزْجُرُهُمْ عَمَّا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ وَالْمَعَاصِي وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ مُتَمَنِّئًا بِذَلِكَ عَلَى بَرِيَّتِهِ: {فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ".

قال الله تعالى : { وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) }

قوله تعالى : { وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ }

قال ابن الجوزي : " فيه قولان .

أحدهما : قيامه بين يدي ربه عز وجل يوم الجزاء (وهو اختار ابن القيم).

والثاني : قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب (وذلك من معاني اسم الله القيوم أي فراقب نفسه وحاسبها كقوله تعالى { ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد }). وجاء في التفسير ، أن العبد يهْمُ بمعصية فيتركها خوفاً من الله عز وجل فله جَنَّتَانِ ، وهما بستانان .

(ويمكن حمل الآية على المعنيين كما هو اختيار الشنقيطي).

قال ابن كثير : " الصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، يَقُولُ تَعَالَى: وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، {وَهَى النَّفْسُ عَنِ الْهَوَى} [النَّازِعَاتِ: ٤٠] ، وَلَمْ يَطْعَ، وَلَا آثَرَ الدُّنْيَا، وَعَلِمَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، فَأَدَّى فَرَائِضَ اللَّهِ، وَاجْتَنَبَ مَحَارِمَهُ، فَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، كَمَا قَالَ الْبُخَارِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ الْعَمِّي، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍانَ الْجَوْنِي، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "جَنَّتَانِ مِنْ فَضْنَةٍ، آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رِداءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ".

ولما كان الناس يتفاوتون في خوفهم مقام ربهم فالجنان أيضاً تختلف تبعاً لذلك .

وقال ابن كثير أيضاً: " وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَهِيَ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِذَا آمَنُوا وَاتَّقَوْا ()؛ وَهَذَا آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الثَّقَلَيْنِ بِهَذَا الْجَزَاءِ فَقَالَ: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ".

١ - الجن يوم القيامة معذبون ومنعمون يدخلون الجنة ويدخلون النار، فمؤمنهم يدخل الجنة وكافرهم يدخل النار؛ بدليل قول الله سبحانه وتعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ} [الأعراف: ٣٨] ، وهذا نص صريح بأنهم مكلفون؛ لأنهم معذبون، وقال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الأعراف: ١٧٩] ، وقال: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٩] .

وكفار الجن يدخلون جهنم بإجماع علماء السنة، ولم يخالف أحد في ذلك، وخالف بعض العلماء بالنسبة لدخولهم الجنة، ولا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٤٦ - ٤٧] والخطاب للجن والإنس.

يقول ابن مفلح وهو من علماء الحنابلة: الجن مكلفون في الجملة إجماعاً - بدون خلاف -، ويدخل كافرهم النار إجماعاً، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقلاً ل مالك والشافعي، فالحنابلة والشافعي والإمام مالك يقولون: مؤمنو الجن يدخلون الجنة، وبعض العلماء يقولون: إن المؤمن من الجن يصير تراباً كالبهيمة بعد الحساب، وثواب مؤمنهم هو النجاة من النار، وهذا قول أبي حنيفة والليث بن سعد وغيرهما.

قال: والظاهر أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم خلافاً لمن قال: لا يأكلون ولا يشربون، لأن بعضهم قال: يدخلون الجنة لكن لا يأكلون ولا يشربون، وهذا قول مجاهد، وبعضهم قال: إنهم في ربض الجنة أي حول الجنة، وهذا قول عمر بن عبد العزيز، والصحيح أن الجن والإنس منهم المعذبون ومنهم المنعمون، فالمعذبون يدخلون جهنم، والمنعمون يدخلون الجنة.

لكن هل التكليف المؤكدة إلى الجن ونفس التكليف المؤكدة للإنس؟ لا، كلهم مكلف، لكن ليس بنفس الأشياء، وليس بنفس الصفات؛ لأن لهم خلقة تختلف عن خلقتنا، فتكليفهم بحسب خلقتهم.

يقول ابن تيمية: الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنهم ليسوا بمائثلين للإنس في الحد والحقيقة، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحد، لكنهم يشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم.

إذاً: الجن يشاركون الإنس في التكليف، لكن ليس بنفس التكليف وبنفس الصفة التي كلفنا بها، وبعض الزنادقة الذين لا يخافون الله يوردون شبهة فيقولون: كيف يعذب الجن في النار وهم من النار؟ يلبسون بهذا على بعض الناس الذين لا علم عندهم.

والجواب أن الجن خلقوا من النار ولكنهم فيما بعد أصبحوا خلقاً آخر ليس هو النار، وإنما يخالف للنار تماماً، كالشجر فهم مخلوقون من طين ثم فيما بعد أصبحوا بشراً، فالإنسان ليس هو الطين، فأصله من الطين لكنه مغاير الآن للطين بحيث لو أخذنا لبنة من الطين وضربنا بها رأس إنسان فإنها قد تقتله، ولو حفرت حفرة لإنسان ودفناه في التراب فإنه يموت، ولا يقول أحد: إن التراب لا يضره؛ لأنه مخلوق من تراب، كذلك الجن أصلهم من النار ولكن النار تؤذيهم كما أن البشر يؤذيهم التراب. (دروس عمر سليمان الأشقر).

وقال ابو حيان : " مقام ربه مصدّر، فاحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل، أي قيام ربه عليه، وهو مروى عن مجاهد، قال: من قوله: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، أي حافظ مهيم، فالعبد يراقب ذلك، فلا يجسر على المعصية. وقيل: الإضافة تكون بأدنى ملابس، فالمعنى أنه يخاف مقامه الذي يقف فيه العبد للحساب، { من قوله: يوم يقوم الناس لرب العالمين } ، وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف. وقيل: مقام مقحم، والمعنى: ولمن خاف ربه، كما تقول: أخاف جانب فلان يعني فلاناً. والظاهر أن لكل فرد فرد من الخائفين جنتان، قيل: إحداهما منزله، والأخرى لأزواجه وخدمه.

وقال مقاتل: جنة عدن، وجنة نعيم. وقيل: منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعي لذته وتظهر ثمار كرامته. وقيل: هما للخائفين والخطاب للثقلين، فجنة للخائف الجي، وجنة للخائف الإنسي. وقال أبو موسى الأشعري: جنة من ذهب للسابقين، وجنة من فضة للتابعين. وقال الرخشي: ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي، لأن التكليف دائر عليهما. وأن يقال: جنة يبات بها، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل لقوله وزيادة .

وقال العدوي : " معاني خوف مقام الله سبحانه وتعالى

وللعلماء في هذه الآية أقوال: أحدها: أن من اعتقد أن الله يراه ويراقبه سبحانه وتعالى في السر والعلن، فله جنتان، فهذا للمسلمين الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، فهؤلاء خافوا مقام ربه في السر والعلن، وقويت مراقبتهم لله سبحانه، ففي كل وقت وفي كل حين يشعرون بقوله تعالى: { الذي يراك حين تقوم * وتقلب في الساجدين } [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، ويشعرون بقوله تعالى: { وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه } [يونس: ٦١] ويوقنون كذلك بقوله تعالى: { ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور } [هود: ٥].

فهذا فريق من العباد قويت عنده مراقبة ربه سبحانه وتعالى، فأيقن أن الله معه في كل وقت وحين، فانزجر عن المعاصي وانكف عن الآثام، ويدخل فيهم الصديق يوسف صلى الله عليه وسلم لما رأى برهان ربه وخشيه بالغيب، ويدخل فيهم ذلك الرجل الذي دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ويدخل فيهم ذلك الرجل الذي قعد بين رجلي ابنة عمه، فلما قالت له: اتق الله ولا تفرض الخاتم إلا بحقه، قام وتركها..

وأيضاً من خوف مقام الرب معنى آخر وهو: تذكر لقائه يوم القيامة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فيما رواه البخاري من حديث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا ما قدم، وينظر من أمامه فلا يرى إلا النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفع، ومن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بكلمة طيبة فليفع)، فهذا أيضاً داخل في الخوف من مقام الرب سبحانه، ومن لقاء الرب سبحانه وتعالى .

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير : " ، لمن خاف مقام ربه أي: قيامه بين يديه للحساب ، إذا خاف هذا المقام ثم ماذا بعد هذا الخوف؟ العمل بما أوجبه الله -جل وعلا-، والترك لما حرمه عليه، يعني المقصود بالخوف والرجاء الممدوحين في النصوص جاءت النصوص بمدحهما.

.. أهل العلم يتكلمون بكلام طويل في المراد بالجننتين في كلام لا دليل عليه، منهم من يقول: إن الجنة له خاصة به، وجنة لأزواجه وخدمه كما يفعله أهل الدنيا، ومنهم من يقول: هما جنتان يرتاح في إحداها ثم ينقلب إلى الأخرى؛ لأن ملازمة المكان الواحد نعم ممل، وهذا في أمور الدنيا في أمر الدنيا ظاهر، تجد الإنسان في قصر فخم واسع جميل ثم بعد ذلك يضع له استراحة، إذا مل من هذا القصر ذهب إلى الاستراحة، وإذا مل من الاستراحة رجع إلى القصر، هذا في الدنيا واضح، لكن هل هناك ملل أو سأم في الآخرة في الجنة؟ لا، لكن التنويع في الجنة موجود، جنة فيها أنواع، وهي أيضاً نوع يختلف عن نوع الجنة الثانية، ولا شك أن هذا من زيادة الإكرام لمن خاف مقام ربه ."

وقال العدوي : " قال بعض العلماء: إن هاتين الجننتين من ذهب، أما الجنتان اللتان دونهما المذكورتان في قوله تعالى: { وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّتَانِ } [الرحمن: ٦٢] فهما من فضة؛ لحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام: (جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما).

ومن العلماء من قال: إن الجنتين جنة له لمقامه كمؤمن، وجنة ورثها من الكافر أو اليهودي أو النصراني كما قال تعالى: { وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الزخرف: ٧٢] وكما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (ما منكم من أحد إلا وقد أعد له مقعده من الجنة ومقعده من النار)، فإذا دخل المسلم الجنة ورث مقام النصراني أو اليهودي فيها، وورث النصراني أو اليهودي أو الكافر مقامه من النار فيكون للمؤمن إذا جنتان، جنته الحقيقة المعدة له، وجنته أيضاً التي ورثها من أو اليهود أو النصراني .

وقوله: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يقول تعالى ذكره: فبأي نعم ربكما أيها الثقلان -التي أنعم عليكم بإثابته المحسن منكم ما وصف جل ثناؤه في هذه الآيات - تكذبان.

وقال ابن الجوزي : " { ذَوَاتَا أَفْنَانٍ } فيه قولان .

أحدهما : أنها الأغصان ، وهي جمع فَنَن ، وهو الغُصْن المستقيم طويلاً ، وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، وعطية ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : أنها الألوان والضروب من كل شيء ، وهي جمع فَنَن ، وهذا قول سعيد بن جبير . وقال الضحاك : ذواتا ألوان من الفاكهة .

وجمع عطاء بين القولين ، فقال في كل غصن فُنون من الفاكهة ."

وقال ابن كثير : " ثُمَّ نَعَتْ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ فَقَالَ: { ذَوَاتَا أَفْنَانٍ } أَي: أَغْصَانٍ نَضِرَةِ حَسَنَةٍ (وهذا القول الاول)، تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ ثَمَرَةٍ نَضِيجَةٍ فَائِقَةٍ، { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } . هَكَذَا قَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسِيُّ وَجَمَاعَةٌ: إِنَّ الْأَفْنَانَ أَغْصَانُ الشَّجَرِ يَمَسُّ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ قُتَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ التُّعْمَانِ، سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يَقُولُ: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} ، يَقُولُ: ظِلُّ الْأَغْصَانِ عَلَى الْحِيطَانِ (وهذا قول ثاني)، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ الشَّاعِرِ حَيْثُ يَقُولُ: مَا هَاجَ شَوْقَكَ مِنْ هَدِيلِ حَمَامَةٍ ... تَدْعُو عَلَى فَنَنِ الْغُصُونِ حَمَامًا ...

تَدْعُو أَبَا فَرْخِينَ صَادَفَ طَاوِيًا ... ذَا مَخْلَبِينَ مِنَ الصُّقُورِ قَطَامًا

وَحَكَى الْبَغْوِيُّ، عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَالضَّحَّاكِ، وَالْكَلْبِيِّ: أَنَّهُ الْغُصْنُ الْمُسْتَقِيمُ [طَوَالًا] .

قَالَ: وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} : ذَوَاتَا أَلْوَانٍ. (وهذا قول ثالث)

قَالَ: وَ [قَدْ] رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ، وَالسَّيِّدِيَّ، وَخُصَيْفٍ، وَالنَّضْرَ بْنَ عَرَبِيٍّ ، وَأَبِي سِنَانٍ مِثْلُ ذَلِكَ. وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ فِيهِمَا فُتُونًا مِنَ الْمَلَادِ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: كُلُّ غُصْنٍ يَجْمَعُ فُتُونًا مِنَ الْفَاكِهَةِ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} : وَاسِعَتَا الْفَنَاءِ. (وهذا قول رابع) وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} يُنْبِئُ بِسَعَتِهَا وَفَضْلِهَا وَمَرِيَّتِهَا عَلَى مَا سَوَاهَا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبَّادٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَسْمَاءَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَذَكَرَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى- فَقَالَ: "يَسِيرُ فِي ظِلِّ الْفَنَنِ مِنْهَا الرَّكَبُ مِائَةَ سَنَةٍ-أَوْ قَالَ: يَسْتَظِلُّ فِي ظِلِّ الْفَنَنِ مِنْهَا مِائَةُ رَاكِبٍ-فِيهَا فِرَاشُ الدَّهَبِ، كَأَنَّ مَرَّهَا الْقِلَالَ".

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ بْنِ بُكَيْرٍ، بِهِ .

وَقَالَ أَبُو حَيَانَ: "وَحَصَّ الْأَفْنَانُ بِالذِّكْرِ جَمْعُ فَنَنِ، وَهِيَ الْغُصُونُ الَّتِي تَتَشَعَّبُ عَنْ فُرُوعِ الشَّجَرِ، لِأَنَّهَا الَّتِي تُورِقُ وَتُثْمَرُ، وَمِنْهَا تَمْتَدُّ الظَّلَالُ، وَمِنْهَا تُجْنَى الثِّمَارُ. وَقِيلَ:

الْأَفْنَانُ جَمْعُ فَنٍ، وَهِيَ أَلْوَانُ النِّعَمِ وَأَنْوَاعُهَا، وَهِيَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْأَوَّلُ قَالَ قَرِيبًا مِنْهُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ، وَهُوَ أَوَّلِي، لِأَنَّ أَفْعَالًا فِي فَعَلٍ أَكْثَرُ مِنْهُ فِي فَعَلٍ بِسُكُونِ الْعَيْنِ، وَفَنٌّ يَجْمَعُ عَلَى فُنُونٍ ."

وقوله: (فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يقول تعالى ذكره: فَبَإِي نعم ربكما معشر الثقيلين التي أنعم عليكما بإثابته هذا الثواب أهل طاعته - تكذبان.

قوله تعالى : { فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) } قال ابن عباس : تجريان بالماء الزلال ، إحداهما : السلسيل ، والأخرى : التسنيم . وقال عطية : إحداهما : من ماءٍ غير آسن ، والأخرى : من خمر . وقال أبو بكر الوراق : فيهما عينان تجريان لِمَنْ كانت له في الدنيا عينان تجريان من البكاء (زاد المسير) .

وقال ابو حيان : " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا عَيْنَانِ مِثْلُ الدُّنْيَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

وَقَالَ: تَجْرِيَانِ بِالزِّيَادَةِ وَالْكَرَامَةِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: تَجْرِيَانِ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ، إِحْدَاهُمَا التَّسْنِيمُ، وَالْأُخْرَى السَّلْسَبِيلُ (وهذا يحتاج لدليل). وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: إِحْدَاهُمَا مِنْ مَاءٍ، وَالْأُخْرَى مِنْ حَمْرٍ (وهذه انهار في الجنة وليست عيون). وَقِيلَ: تَجْرِيَانِ فِي الْأَعَالِي وَالْأَسْفَلِ مِنْ جَبَلٍ مِنْ مِسْكِ. زَوْجَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ شَجَرَةٍ خُلُوةٍ وَلَا مُرَّةٍ إِلَّا وَهِيَ فِي الْجَنَّةِ، حَتَّى شَجَرُ الْحَنْظَلِ، إِلَّا أَنَّهُ حَلَوٌ. انْتَهَى. وَمَعْنَى زَوْجَانِ: رَطْبٌ وَيَابِسٌ، لَا يَقْصُرُ هَذَا عَنْ ذَاكَ فِي الطَّيِّبِ وَاللَّدَّةِ."

وقال ابن كثير: "{ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ } أَي: تَسْرَحَانِ لِسَقْيِ تِلْكَ الْأَشْجَارِ وَالْأَغْصَانِ فَتُثْمِرُ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ، { فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِحْدَاهُمَا يُقَالُ لَهَا: "تَسْنِيمٌ"، وَالْأُخْرَى "السَّلْسَبِيلُ". وَقَالَ عَطِيَّةُ: إِحْدَاهُمَا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسَنِ، وَالْأُخْرَى مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ". وقال ابن عثيمين: " والعينان اللتان تجريان، يظهر - والله أعلم - أنهما سوى هذه الأنهار الأربعة". وقال الرازي: " أي في كل واحدة منهما عين جارية كما قال تعالى فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ".

قال البقاعي: " ولما كانت الجنان لا تقوم إلا بالأنهار قال: { فِيهِمَا عَيْنَانِ } أي في كل واحدة عين { تجريان } * { أي في كل مكان شاء صاحبهما وإن علا مكانه كما تصعد المياه في الأشجار في كل غصن منها، وإن زاد علوها }".

قوله تعالى: { فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ } أي: صنفان ونوعان. قال المفسرون: فِيهِمَا مِنْ كُلِّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ نَوْعَانِ، رَطْبٌ وَيَابِسٌ، لَا يَقْصُرُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فِي فَضْلِهِ.

قال البقاعي: "{ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ } أَي تَعْلَمُونَهَا أَوْ لَا تَعْلَمُونَهَا { زَوْجَانِ }".

وقال ابن كثير: " أَي: مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ مِمَّا يَعْلَمُونَ وَخَيْرٌ مِمَّا يَعْلَمُونَ، وَمِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، { فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }".

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا فِي الدُّنْيَا ثَمَرَةٌ خُلُوةٌ وَلَا مُرَّةٌ إِلَّا وَهِيَ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى الْحَنْظَلَةُ (لكن الله تعالى لم يقل فِيهِمَا مِنْ كُلِّ ثَمَرَةٍ زَوْجَانِ وليس الحنظل من الفاكهة).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ، يَعْنِي: أَنَّ يَبْنَ ذَلِكَ بَوْنًا عَظِيمًا، وَفَرْقًا بَيْنًا فِي التَّفَاضُلِ."

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير: "نوعان: رطب ويابس" (وهذا يحتاج لدليل فيبقى على ظاهره ونكل علمه الى الله تعالى) (إن كان التنوع بالرطوبة واليبوسة ففيه من الرطب وفيه من اليابس؛ لأن الإنسان قد يشتهي أحياناً رطباً، وأحياناً قد يشتهي اليابس حتى في الدنيا، يعني لو نظرنا على سبيل المثال مثلاً التمر، العنب، التين، من أمور الدنيا تجد بعض الناس أو الإنسان نفسه في وقت يفضل الرطب، ويتيسر له هذا الرطب، لا سيما بعد وجود هذه الوسائل التي تحفظ هذه الأشياء السنة والسنتين وأكثر، وأحياناً يفضل اليابس، وهذا كله موجود في الآخرة، أحياناً يكون التين رطباً، وأحياناً يكون يابساً أفضل عند بعض الناس، وقد يكون عند الإنسان نفسه أحياناً يفضل هذا الرطب، وأحياناً يفضل اليابس، التمر أحياناً يفضل رطباً، وأحياناً يفضل يابساً، العنب أحياناً يفضل رطباً، وأحياناً يفضل زبيباً مثلاً وهكذا".

قوله تعالى { مُتَكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) } قال البقاعي : " { مُتَكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ } ، جمع فراش ، { بَطَانُهَا } ، جمع بطانة ، وهي التي تحت الظهارة . وقال الزجاج : وهي مما يلي الأرض . { مِنْ إِسْتَبْرَقٍ } وهو ما غلظ من الديبا . قال ابن مسعود وأبو هريرة : هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر ؟ وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من إستبرق ، فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله عز وجل : { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين } [السجدة - ١٧] وعنه أيضاً قال : بطائنها من إستبرق فظواهرها من نور جامد . وقال ابن عباس : وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر .

وقال الطبري : " وقوله { وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ } يقول : وثمر الجنتين الذي يجتني قريب منهم ، لأنهم لا يتعبون بصعود نخلها وشجرها ، لاجتناء ثمرها ، ولكنهم يجتنونها من قعود بغير عناء " .

وقال ابو حيان : " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَجْتَنِيهِ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا ، لَا يَرُدُّ يَدَهُ بَعْدَ وَلَا شَوْكٌ وَقَرَأَ عِيسَى : بِفَتْحِ الْجِيمِ وَكَسْرِ النُّونِ ، كَأَنَّهُ أَمَالَ النُّونَ ، وَإِنْ كَانَتْ الْأَلِفُ قَدْ حُذِفَتْ فِي اللَّفْظِ ، كَمَا أَمَالَ أَبُو عَمْرٍو حَتَّى نَرَى اللَّهَ « ١ » . وقرئ : وَجَنَى بِكَسْرِ الْجِيمِ . وَالضَّمِيرُ فِي فِيْهِنَّ عَائِدٌ عَلَى الْجَنَانِ الدَّالِّ عَلَيْهِنَّ جَنَّتَانِ ، إِذْ كُلُّ فَرْدٍ فَرْدٌ لَهُ جَنَّتَانِ ، فَصَحَّ أَنَّهَا جَنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنْ كَانَ الْجَنَّتَانِ أُريدَ بِهِمَا حَقِيقَةُ التَّشْبِيهِ ، وَإِنَّ لِكُلِّ جَنْسٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَنَّةً وَاحِدَةً ، فَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ مِنَ الْمَجَالِسِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ . وَقِيلَ :

يَعُودُ عَلَى الْفُرْشِ ، أَيِ فِيْهِنَّ مَعْدَاتٌ لِلِاسْتِمَاعِ ، وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ قَرِيبٌ الْمَأْخِذِ . وَقَالَ الرَّخْشَرِيُّ : فِيْهِنَّ فِي هَذِهِ الْأَلَاءِ الْمَعْدُودَةِ مِنَ الْجَنَّتَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْفَاكِهَةِ وَالْجَنَى . انْتَهَى ، وَفِيهِ بَعْدُ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ : كُلُّ مَوْضِعٍ مِنَ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ ، فَلِذَلِكَ قَالَ : فِيْهِنَّ " .

وقال ابن كثير : " يَقُولُ تَعَالَى : { مُتَكِنِينَ } يَعْنِي : أَهْلَ الْجَنَّةِ . وَالْمُرَادُ بِالِاتِّكَاءِ هَاهُنَا : الْإِصْطِجَاعُ . وَيُقَالُ : الْجُلُوسُ عَلَى صِفَةِ الرَّثْعِ . { عَلَى فُرْشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ } وَهُوَ : مَا غَلِظَ مِنَ الدِّيبَا . قَالَهُ عِكْرَمَةُ ، وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ . وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو الْجَوْنِي : هُوَ الدِّيبَا جُ الْمَغْرَبِي بِالذَّهَبِ . فَتَبَّهَ عَلَى شَرَفِ الظَّهَارَةِ بِشَرَفِ الْبُطَانَةِ . وَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى .

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ، عَنْ هُبَيْرَةَ بْنِ يَرِيمَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : هَذِهِ الْبَطَانُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتُمُ الظَّوَاهِرَ ؟ .. وَقَالَ ابْنُ شَوْدَبَ ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّامِيِّ : ذَكَرَ اللَّهُ الْبَطَانُ وَلَمْ يَذْكُرِ الظَّوَاهِرَ ، وَعَلَى الظَّوَاهِرِ الْمَحَابِسُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَحْتَ الْمَحَابِسِ إِلَّا اللَّهُ . ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

{ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ } أَيِ : ثَمَرُهَا قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ ، مَتَى شَاءُوا تَنَاوَلُوهُ عَلَى أَيِّ صِفَةٍ كَانُوا ، كَمَا قَالَ : { قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ } [الْحَاقَّةُ : ٢٣] ، وَقَالَ : { وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلُّيلًا } [الْإِنْسَانُ : ١٤] أَيِ : لَا تَمْنَعُ مِمَّنْ تَنَاوَلَهَا ، بَلْ تَنْحَطُّ إِلَيْهِ مِنْ أَغْصَانِهَا ، { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } " .

وقال الطاهر بن عاشور : " والاتكاء : جلسة أهل الترف المخدمين لأنها جلسة راحة وعدم احتياج إلى النهوض للتناول".

وقال الرازي : " قوله تعالى وَجَعَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فيه إشارة إلى مخالفتها لجنة دار الدنيا من ثلاثة أوجه أحدها أن الثمرة في الدنيا على رءوس الشجرة والإنسان عند الاتكاء يبعد عن رءوسها وفي الآخرة هو متكئ والثمره تنزل إليه .

ثانيها في الدنيا من قرب من ثمرة شجرة بعد عن الأخرى وفي الآخرة كلها دان في وقت واحد ومكان واحد وفي الآخرة المستقر فيجنة عنده الجنة أخرى.

ثالثها أن العجائب كلها من خواص الجنة فكان أشجارها دائرة عليهم سائرة إليهم وهم ساكنون على خلاف ما كان في الدنيا وجناتها وفي الدنيا الإنسان متحرك ومطلوبه ساكن وفيه الحقيقة وهي أن من لم يكسل ولم يتقاعد عن عبادة الله تعالى وسعى في الدنيا في الخيرات انتهى أمره إلى سكون لا يحوجه شيء إلى حركة فأهل الجنة إن تحركوا تحركوا لا حاجة وطلب وإن سكنوا سكنوا لا لاستراحة بعد التعب ثم إن الولي قد تصير له الدنيا أنموذجاً من الجنة فإنه يكون ساكناً في بيته ويأتيه الرزق متحركاً إليه دائراً حوالبه يدلك عليه قوله تعالى {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} [آل عمران ٣٧] .

وقوله: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يقول تعالى ذكره: فبأي آلاء ربكما معشر الثقلين التي أنعم عليكم - من أثاب أهل طاعته منكم هذا الثواب، وأكرمهم هذه الكرامة - تكذبان.

قوله تعالى {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْ تُقْبِلَهُمْ وَلَا جُنَّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) }

قال الطبري : " يقول تعالى ذكره في هذه الفرش التي بطانها من إستبرق (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)، وهنّ النساء اللاتي قد قُصِرَ طرفهنّ على أزواجهنّ، فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال.

(ثم روى عن) عن مجاهد في قوله: (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) قال: قُصِرَ طرفهنّ عن الرجال، فلا ينظرن إلا إلى أزواجهنّ.

(و) عن قتادة (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) الآية، يقول: قُصِرَ طرفهنّ على أزواجهنّ، فلا يردن غيرهم.

(و) قال ابن زيد، في قوله: (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) قال: لا ينظرن إلا إلى أزواجهنّ، تقول: وعزة ربي وجلاله وجماله، إن أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي، وجعلني زوجك".

قال ابن كثير : " {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} أَي غَضِيضَاتٌ عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَرَيْنَ شَيْئًا أَحْسَنَ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسِيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ تَقُولُ لِبُعْلِهَا: وَاللَّهِ مَا أَرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْكَ، وَلَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ لِي وَجَعَلَنِي لَكَ .

قال ابن القيم: "ظاهر القرآن أنَّ هؤلاء النسوة لسنَّ من نساء الدنيا، وإنما هنَّ من الحُور حور العين. وأما نساء الدنيا فقد طمِثهنَّ الإنس، ونساء الجنَّ قد طمِثهنَّ الجنَّ، والآية تدل على ذلك. ويدل على أنَّهنَّ الحور اللاتي خُلِقن في الجنة أنه سبحانه جعلهنَّ مما أعده الله في الجنة لأهلها من الفاكهة والثمار والأثمار والملابس وغيرها، ويدل عليه أيضًا الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، ثم قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾."

وقال ابن عثيمين: "{قاصرات الطرف}" يعني أنها تقصر طرفها أي نظرها على زوجها فلا تريد غيره، والوجه الآخر: قاصرات الطرف، أي: أنها تقصر طرف زوجها عليها فلا يريد غيرها، وعلى القول الأول يكون قاصرات مضافة إلى الفاعل، وعلى الثاني مضاف إلى المفعول .

والمعنى الأول هو المتبادر وهو الذي تمدح به المرأة لأنه دليل عفتها بخلاف نساء الدنيا فقد يعجبها هيئة هذا ومنطق هذا وشجاعة هذا وغير ذلك .

والمعنى الثاني فيه شدة حسننها أيضا ولذلك لم يتطلع زوجها لغيرها .

وقال الطبري: "وقوله: (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) يقول: لم يمسهنَّ إنس قبل هؤلاء الذين وصف جل ثناؤه صفتهم، وهم الذين قال فيهم (وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ) . ولا جانَّ يقال منه: ما طمِث هذا البعير جبل قط: أي ما حائض، فقال أبو العالية : حائض، أليس يقول الله عزَّ وجل (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) . فإن قال قائل: وهل يجمع النساء الجنَّ، فيقال: (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) ؟ فإن مجاهدًا روي عنه ما حدثني به محمد بن عمارة الأسدي، قال: ثنا سهل بن عامر، قال: ثنا يحيى بن يعلى الأسلمي عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد، قال: إذا جامع الرجل ولم يسمَّ، انطوى الجانَّ على إحليله فجامع معه، فذلك قوله: (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) . وكان بعض أهل العلم ينتزع بهذه الآية في أن الجنَّ يدخلون الجنة.

* ذكر من قال ذلك:

حدثني أبو حميد أحمد بن المغيرة الحمصي، قال: ثنا أبو حيوه شريح بن يزيد الحضرمي قال: ثنا أروطة بن المنذر، قال: سألت ضمرة بن حبيب: هل للجنَّ من ثواب؟ قال: نعم، ثم نزع بهذه الآية (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) ، فالإنسيات للإنس، والجنيات للجنَّ .

وقال ابو حيان: "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَفْتَضَّهِنَّ قَبْلَ أَرْوَاجِهِنَّ. وَقِيلَ: لَمْ يَطَّأهُنَّ عَلَى أَيْ وَجْهِ. كَانَ الْوُطْءُ مِنْ افْتِصَاضٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُ عِكْرَمَةَ. وَالضَّمِيرُ فِي قَبْلَهُمْ عَائِدٌ عَلَى مَنْ عَادَ عَلَيْهِ الضَّمِيرُ فِي مُتَكَيِّنٍ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: بِكُسْرِ مِيمٍ يَطْمِثْهُنَّ فِي الْمُؤْضِعَيْنِ وَطَلْحَةَ وَعِيسَى وَأَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَلِيٌّ: بِالضَّمِّ.

وَقَرَأَ نَاسٌ: بِضَمِّ الْأَوَّلِ وَكَسْرِ الثَّانِي، وَنَاسٌ بِالْعَكْسِ، وَنَاسٌ بِالتَّخْيِيرِ، وَالْجُحْدَرِيُّ: بَفَتْحِ الْمِيمِ فِيهِمَا، وَنَفَى وَطَيْهَنَ عَنِ الْإِنْسِ ظَاهِرٌ وَأَمَّا عَنِ الْجِنِّ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالحَسَنُ: قَدْ تَجَامَعُ نِسَاءُ الْبَشَرِ مَعَ أَزْوَاجِهِنَّ، إِذْ لَمْ يَذْكُرِ الرَّوْجُ اللَّهَ تَعَالَى، فَتَفَى هُنَا جَمِيعَ الْمُجَامِعِينَ. وَقَالَ ضَمْرَةً بَنُ حَبِيبٍ: الْجِنُّ فِي الْجَنَّةِ لَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ مِنَ الْجِنِّ نَوَعُهُمْ، فَتَفَى الْإِفْتِضَاضَ عَنِ الْبَشَرِيَّاتِ وَالْجِنِّيَّاتِ .

وقال الطاهر بن عاشور : " والطمث بفتح الطاء وسكون الميم مسيس الأنثى البكر ، أي من أ بكر . وعُبر عن البكارة ب { لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان } إطناباً في التحسين ، وقد جاء في الآية الأخرى { فجعلناهن أبكاراً } [الواقعة : ٣٦] . وهؤلاء هن نساء الجنة لا أزواج المؤمنين اللائي كنَّ لهم في الدنيا لأنهن قد يكنَّ طمثنهم أزواج فإن الزوجة في الجنة تكون لآخر من تزوجها في الدنيا " .

وقال ابن منظور : " ومعنى لم يطمثن: لم يمسنهن. وقال الفراء: الطمث الافتضاض، وهو النكاح بالتدمية. قال: والطمث هو الدم، وهما لغتان. طمث يطمث، ويطمث. والقراء أكثرهم على: لم يطمثن، بكسر الميم. أبو الهيثم: يقال طمئت طمئت أي أدميت بالافتضاض " .

كما في قوله تعالى { ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون } قال مقاتل شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النار فلا يذكروهم ولا يهتمون لهم و قال ابو الاحوص شغلوا بافتضاض الابكار عن السرر في الحجال و قال سليمان التيمي عن ابي مجلز قلت لابن عباس عن قول الله تعالى ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ما شغلهم قال افتضاض الابكار.(حادي الارواح لابن القيم).

وقال ابن عثيمين : " { لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان } أي: لم يجامعن، وقيل: إن الطمث مجامعة البكر، والمعنى أنهن أبكار لم يجامعن أحد من قبل لا إنس ولا جن، وفي هذا دليل واضح على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة". وقال العدوي : " لقد أثبت هنا مسألة وفي الحقيقة لا معنى لإثارتها، لكنها قد ذكرت ونذكرها عرضاً على وجه السرعة، ألا وهي مسألة: هل الجن يفتض إنسية؟ وهل يمكن أو يتصور أن جنياً يفتض إنسية ويفض بكارتها ويعتدي عليها أو أن هذا لا يتصور؟! في الحقيقة أن مثل هذه المسائل التي يفترض أن تكون موجودة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ الجن كانوا موجودين على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام، والنساء والفتيات كن موجودات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينقل في أية حالة أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع شيئاً من هذا ولا أفق فيه صلوات الله وسلامه عليه.

يعني: لم يرد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أبداً أن امرأة افتضها جني، وما ورد ذلك بحال من الأحوال، ولا سقط الحد أبداً عن امرأة اتهمت بأنها زنت وقالت: إن حملي من جني، أو إن افتضاضي من جني، ولا تسقط الحدود بمثل هذه الأقوال.

فغاية ما ورد في هذا الباب بما قد يستأنس به أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المستحاضة التي تحيض ولا تطهر ويستمر دمها ويستمر نزيفها، قال: (ذاك ركضة من ركضات الشيطان) لكن إسناد هذا الخبر من طريق راوٍ يقال له: عبد الله بن محمد بن عقيل ، والراجح عند أكثر العلماء أنه ضعيف الحديث .
فعلى ذلك لا يثبت في افتضاض الجنى للإنسية في الدنيا أي شيء، ومن ثم مسألة زواج الإنسي بالجنية أو الجنى بالإنسية فكل هذا لم يثبت فيه خبر أبداً .

وقال الشيخ عبدالكريم الخضير : " والآية فيها دليل على أن الإنسي قد يقع على الجنية والعكس، ويذكر بعض القصص أن فلان من الناس تزوج جنية، ويذكر أيضاً في الأسئلة الآن يكثر أن المرأة الممسوسة قد لا يمكنها الجنى من الصلاة حتى يقع عليها، هذا موجود في الأسئلة يعني، سئل عنه مراراً، فهذا يدل على الإمكان".
ووجود الحور العين في الجنة هو مما اختص به الرجال من اهل الجنة واما المرأة المؤمنة فليس من نعيمها ان يكون لها اكثر من رجل كما هو الحال في العفيفات من نساء الدنيا ونساء الجنة قاصرات طرفهن على ازواجهن .

قوله تعالى : { كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) }

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة فلوهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض لكل امرئ منهم زوجته كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء حَمِيها من الحُسن يسبحون الله بكرة وعشياً لا يسقمون ولا يمتخطون ولا يبصقون آيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ووفود مجامرهم الألوة قال أبو اليمان يعني العود ورشحهم المسك وقال مجاهد الإبنكار أول الفجر والعشي ميل الشمس إلى أن أراه تغرب.

وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على أضوا كوكب دري في السماء ولكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب . رواه البخاري ومسلم.

وروى عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها ولقَاب قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعٍ قِيدِ يَغْنِي سَوَطُهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَّتْهُ رِيحًا وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
قال الطبري : " كأن هؤلاء القاصرات الطرف، اللواتي هن في هاتين الجنتين في صفائهن الياقوت، الذي يرى السلك الذي فيه من ورائه، فكذلك يرى مخ سوقهن من وراء أجسامهن، وفي حسنهن الياقوت والمرجان.

(ف) عن ابن مسعود عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَرَى بَيَاضَ ساقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً مِنْ حَرِيرٍ وَنُحْمًا، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: (كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ) أَمَّا الْيَاقُوتُ فَإِنَّهُ لَوْ أَدْخَلْتَ فِيهِ سِلْكَ ثُمَّ اسْتَصَفَيْتَهُ لَرَأَيْتَهُ مِنْ وَرَائِهِ".

قال ابو حيان : " قَالَ قَتَادَةُ: كَأَنَّ عَلَى صَفَاءِ الْيَاقُوتِ وَحُمْرَةِ الْمَرْجَانِ، لَوْ أَدْخَلْتَ فِي الْيَاقُوتِ سِلْكَ، ثُمَّ نَظَرْتَ إِلَيْهِ، لَرَأَيْتَهُ مِنْ وَرَائِهِ. انْتَهَى. وَفِي التِّرْمِذِيِّ: أَنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ لَيَرَى بَيَاضَ ساقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حِلَّةً مَخْمًا. وقال ابن عطية: الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُرْتَأَى بِحُسْنِهَا، فَشَبَّهَ بِهَا فِيمَا يَحْسُنُ التَّشْبِيهُ بِهِ، فَالْيَاقُوتُ فِي إِمْلَاسِهِ وَشُفُوفِهِ، وَالْمَرْجَانُ فِي إِمْلَاسِهِ وَجَمَالِ مَنْظَرِهِ، وَبِهَذَا التَّحْوِ مِنَ النَّظَرِ سَمَّتِ الْعَرَبُ التِّسَاءَ بِذَلِكَ، كَذَرَّةٍ بِنْتُ أَبِي هَبٍ، وَمَرْجَانَةُ أُمِّ سَعِيدٍ. انْتَهَى .

وقال ابن كثير : " قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ: فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ وَبَيَاضِ الْمَرْجَانِ، فَجَعَلُوا الْمَرْجَانَ هَاهُنَا اللَّوْلُؤَ . فشبَّهوا باللؤلؤ من بياضها ومن جهة صفائها بالمرجان الصافي المشوب بحمرة وهو صغار اللؤلؤ. وقال الرازي : " وهذا التشبيه فيه وجهان أحدهما تشبيه بصفائهما وثانيهما بحسن بياض اللؤلؤ وحمرة الياقوت والمرجان صغار اللؤلؤ وهي أشد بياضاً وضياءً من الكبار بكثير فإن قلنا إن التشبيه لبيان صفائهن فنقول فيه لطيفة هي أن قوله تعالى قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ إشارة إلى خلوصهن عن القبايح وقوله كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ إشارة إلى صفائهن في الجنة فأول ما بدأ بالعقليات وختم بالحسيات كما قلنا إن التشبيه لبيان مشابهة جسمهن بالياقوت والمرجان في الحمرة والبياض فكذلك القول فيه حيث قدم بيان العفة على بيان الحسن ولا يبعد أن يقال هو مؤكد لما مضى لأنهن لما كن قاصرات الطرف ممتنعات عن الاجتماع بالانس والجن لم يطمثن فهن كالياقوت الذي يكون في معدنه والمرجان المصون في صدفه لا يكون قد مسه يد لامس " .

قوله تعالى { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) }

قال ابن الجوزي : " قال الزجاج ، أي : ما جزاء مَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ . وقال ابن عباس : هل جزاء من قال : « لا إله إلا الله » وعَمِلَ بما جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم إِلَّا الْجَنَّةُ . وروى أنس بن مالك قال : " قرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، وقال : «هل تدرون ما قال ربُّكم»؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإن ربُّكم يقول : هل جزاء مَنْ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بالتوحيد إِلَّا الْجَنَّةُ» " .

وقال ابن جرير : " يقول تعالى ذكره : هل ثواب خوف مقام الله عزَّ وجلَّ لمن خافه، فأحسن في الدنيا عمله، وأطاع ربه، إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربُّهُ، بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا، ما وصف في هذه الآيات " .

وقال ابن كثير : " وَقَوْلُهُ: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} أَي: مَا لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا الْعَمَلُ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يُونُس: ٢٦] " .

وقال الطاهر بن عاشور : " أي لأنهم أحسنوا فجازاهم ربهم بالإحسان .

والإحسان الأول : الفعل الحسن ، والإحسان الثاني : إعطاء الحسن ، وهو الخير ، فالأول من قولهم : أحسن في كذا ، والثاني من قولهم : أحسن إلى فلان .

والاستفهام مستعمل في النفي ، ولذلك عقب بالاستثناء فأفاد حصر مجازاة الإحسان في أنها إحسان ، وهذا الحصر إخبار عن كونه الجزاء الحق ومقتضى الحكمة والعدل ، وإلا فقد يتخلف ذلك لدى الظالمين ، قال تعالى : { وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون } [الواقعة : ٨٢] وقال : { فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها } [الأعراف : ١٩٠] .
وعلم منه أن جزاء الإساءة السوء قال تعالى : { جزاءً وفاقاً } [النبأ : ٢٦] .

وقال ابن عثيمين : " يعني ما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، الإحسان الأول : العمل ، والإحسان الثاني : الثواب ، أي : ما جزاء إحسان العمل إلا إحسان الثواب " .

قال ابن كثير : " وَلَمَّا كَانَ فِي الَّذِي ذُكِرَ نِعَمٌ عَظِيمَةٌ لَا يُقَاوِمُهَا عَمَلٌ ، بَلْ مُجْرَدُ تَفَضُّلٍ وَامْتِنَانٍ ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ : { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } " .

قوله تعالى { وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَكِينِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حَسَنٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) }

روى البخاري ومسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آيتنهما وما فيهما وجنتان من ذهب آيتنهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن .

قال ابن الجوزي : "قوله تعالى : { وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ } قال الزجاج : المعنى : ولمن خاف مقام ربه جنتان ، وله من دونهما جنتان .

وفي قوله : «وَمِنْ دُونِهِمَا» قولان .

أحدهما : دونهما في الدرج ، قاله ابن عباس .

والثاني : دونهما في الفضل كما روى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " جنتان من ذهب وجنتان من فضة " ؛ وإلى نحو هذا ذهب ابن زيد ، ومقاتل .

وقال ابن كثير : " هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا فِي الْمَرْتَبَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ... فَأَلْوَلِيَانِ لِلْمُقَرَّبِينَ ، وَالْآخِرِيَانِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ .

... والدَّلِيلُ عَلَى شَرَفِ الْأَوَّلَيْنِ عَلَى الْآخَرَيْنِ وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قَبْلَ هَاتَيْنِ، وَالتَّقْدِيمُ يَدُلُّ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ ثُمَّ قَالَ: {وَمَنْ دُوْنَهُمَا جَنَّتَانِ} . وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي شَرَفِ التَّقْدِيمِ وَغُلُوِّهِ عَلَى الثَّانِي .

وقوله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يقول: فبأي نعم ربكما التي أنعم عليكم – بإثابته أهل الإحسان ما وصف من هاتين الجنتين – تكذبان؟

وقال ابن الجوزي: " قوله تعالى : { مُدْهَمَّتَانِ } قال ابن عباس [وابن الزبير] : خضراوان من الرِّيِّ . وقال أبو عبيدة : من خَضِرْتُهُمَا قد اسودَّتا . قال الزجاج : يعني أنهما خضراوان تضرب خضرتُهُمَا إلى السَّوَادِ ، وكل نبت أخضر فتمام خَضِرْتُهُ وَرِيَّهُ أَنْ يَضْرِبَ إِلَى السَّوَادِ .

وقال الطاهر بن عاشور : " وصف مشتق من الدَّهْمَةِ بضم الدال وهي لون السواد . ووصف الجنتين بالسواد مبالغة في شدة خضرة أشجارهما حتى تكونا بالشفاف أشجارها وقوة خضرتها كالسوداوين لأن الشجر إذا كان رِيَّان اشتدت خضرة أوراقه حتى تقرب من السواد . ولذلك يقال سواد العراق لشدة خضرتة لكثرة النخيل فيه .

قال ابن كثير : " وَقَالَ هُنَاكَ : { ذَوَاتَا أَفْنَانٍ } : وَهِيَ الْأَغْصَانُ أَوْ الْفُتُونُ فِي الْمَلَاذِ ، وَقَالَ هَاهُنَا : { مُدْهَمَّتَانِ } أَيِ سَوْدَاوَانٍ مِنْ شِدَّةِ الرِّيِّ " . وظهور الاغصان في الشجرة من جمالها .

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى : { نَضَّاحَتَانِ } قال أبو عبيدة : فَوَارَتَانِ . وقال ابن قتيبة : تفوران ، و«النَّضْحُ» أكثر من «النَّضْحُ» . وفيما يفوران به أربعة أقوال .

أحدها : بالمسك والكافور ، قاله ابن مسعود .

والثاني : بالماء ، قاله ابن عباس . (قال ابن جرير : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: غُني بذلك أنهما تنضخان بالماء ، لأنه المعروف بالعيون إذ كانت عيون ماء" .

والثالث : بالخير والبركة ، قاله الحسن .

والرابع : بأنواع الفاكهة ، قاله سعيد بن جبير . (وضعفه ابن عطية).

وقال ابن كثير : " وَقَالَ هُنَاكَ : { فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ } ، وَقَالَ هَاهُنَا : { نَضَّاحَتَانِ } ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَيِ فَيَاضَتَانِ . وَالْجُرِّيُّ أَقْوَى مِنَ النَّضْحِ .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : { نَضَّاحَتَانِ } أَيِ مُتَمَلِّتَانِ لَا تَنْقَطِعَانِ " .

قال ابن كثير : " وَقَالَ هُنَاكَ : { فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رُوحَانٌ } ، وَقَالَ هَاهُنَا : { فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ } ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَوَّلَى أَعَمُّ وَأَكْثَرُ فِي الْأَفْرَادِ وَالتَّنْوِيعِ عَلَى فَاكِهَةٍ ، وَهِيَ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِنْبَاتِ لَا تَعْمُ ؛ وَهَذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ : { وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ } مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، كَمَا قَرَّرَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَإِنَّمَا أُفْرِدَ النَّخْلُ وَالرُّمَّانُ بِالذِّكْرِ لِشَرْفِهِمَا عَلَى غَيْرِهِمَا " .
وكلمة كل دليل على العموم ولم يذكر ذلك في الثانية.

قال الألوسي : ثم إن نخل الجنة ورماتها وراء ما نعرفه .

قال ابن جرير : " فإن قيل لنا : فكيف أعيدا وقد مضى ذكرهما مع ذكر سائر الفواكه ؟ قلنا : ذلك كقوله : { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى } ، فقد أمرهم بالمحافظة على كل صلاة ، ثم أعاد العصر تشديدا لها ، كذلك أعيد النخل والرمّان ترغيبا لأهل الجنة . وقال : وذلك كقوله : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } ، ثم قال { وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } ، وقد ذكرهم في أوّل الكلمة في قوله : { مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } " .

قال ابن كثير : " ثُمَّ قَالَ : { فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ } قِيلَ : الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَقِيلَ : خَيْرَاتٌ جَمْعُ خَيْرَةٍ ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الْخُلُقِ الْحَسَنَةُ الْوَجْهِ ، قَالَه الْجَمْهُورُ وَرُوِيَ مَرْفُوعًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ . وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي سَنَوْدُهُ فِي سُورَةِ "الْوَاقِعَةِ" : أَنَّ الْحُورَ الْعَيْنَ يُعْنَيْنَ : نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحَسَنَاتُ ، خُلِقْنَا لِأَزْوَاجِ كِرَامٍ . وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْضُهُمْ : " فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ " ، بِالتَّشْدِيدِ { حَسَنَاتٌ } . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } " .

والقراءات يفسر بعضها بعضا فيحمل قراءة خيرات بدون التشديد على قراءة التشديد فيكون المراد به النساء الصالحات ويؤيده حديث غناء الحور العين المتقدم .

قال ابن القيم في حادي الارواح : " فالخيرات جمع خيرة وهي مخففة من خيره كسيدة ولينة وحسان جمع حسنة فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم وحسان الوجوه " .

قوله تعالى : { حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) } .

قال ابن جرير : " يقول تعالى ذكره مخبرا عن هؤلاء الخيرات الحسان { حُورٌ } يعني بقوله حور : بيض ، وهي جمع حوراء ، والحوراء : البيضاء " .

قال مجاهد : الحور : البيض قلوبهم وأنفسهم وأبصارهم .

قال ابن كثير : " ثُمَّ قَالَ : { حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ } ، وَهُنَاكَ قَالَ : { فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ } ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّتِي قَدْ قَصَرَتْ طَرَفَهَا بِنَفْسِهَا أَفْضَلُ مِمَّنْ قُصِرَتْ ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مُخَدَّرَاتٍ " .

وقال ابن الجوزي : " وفي المقصورات قولان .

أحدهما : المحبوسات في الحِجَال ، قاله ابن عباس ، وهو مذهب الحسن ، وأبي العالية ، والقرظي ، والضحاك ، وأبي صالح .

والثاني : المقصورات الطَّرَفَ على أزواجهنّ ، فلا يرفعن طَرَفًا إلى غيرهم ، قاله الربيع . وعن مجاهد كالقولين . والأول أصح ، فإن العرب تقول : امرأة مَقْصُورَةٌ وَقَصِيرَةٌ وَقَصُورَةٌ : إذا كانت ملازمة خدرها " .

وروى البخاري عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن في الجنة حيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً".

قال ابن كثير: "لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان": [قد] (٥) تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: {كأنهم أياقوت والمرجان}. فبأي آلاء ربكمَا تكذبان { " .

قال ابن جرير: "قوله: (لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان) يقول تعالى ذكره: لم يمسهن بنكاح فيدمهن إنس قبلهم ولا جان".

وقرأت قراء الأمصار (لم يطمئنهن) بكسر الميم في هذا الموضع وفي الذي قبله. وكان الكسائي يكسر إحداهما. وبضم الأخرى.

والصواب من القراءة في ذلك؛ ما عليه قراء الأمصار لأنها اللغة الفصيحة، والكلام المشهور من كلام العرب ". وقال ابن جرير: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- وصفهن بأهن مقصورات في الخيام، والقصر: هو الحبس، ولم يخص وصفهن بأهن محبوسات على معنى من المعنيين اللذين ذكرنا دون الآخر، بل عم وصفهن بذلك، والصواب أن يعم الخبر عنهن بأهن مقصورات في الخيام على أزواجهن فلا يردن غيرهم، كما عم ذلك". ومن حسن المرأة أن تقر في بيتها ولا تكون خراجة الولاة.

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى: {مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ} وقرأ عثمان بن عفان، وعاصم الجحدري، وابن محيصن: «على رَفَارَفٍ» جمع غير مصروف. وقرأ الضحاک، وأبو العالية، وأبو عمران الجوني مثلهم، إلا أنهم صرفوا «رفارف» قال ثعلب: إنما لم يقل: أخضر، لأن الرفرف جمع، واحده: رفرة، كقوله: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً} [يس: ٨٠] ولم يقل: الخضر، لأن الشجر جمع، تقول: هذا حصي أبيض، وحصي أسود". وقال ابن كثير: "عن ابن عباس: الرفرف: المحابس (). وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هي المحابس. وقال العلاء بن بدر الرفرف على السرير، كهنية المحابس المتدلي. وقال عاصم الجحدري: {مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ} يعني: الوسائد. وهو قول الحسن البصري في رواية عنه. وقال أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير في قوله: {مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ} قال: الرفرف: رياض الجنة "

قال ابن جرير: "وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم خبر غير محفوظ، ولا صحيح السند (على رَفَارَفٍ خُضِرٍ وعَبَاقِرِيّ) بالألف والإجراء. وذكر عن زهير الفرقي أنه كان يقرأ (على رَفَارَفٍ خُضِرٍ)، بالألف وترك الإجراء، (وعَبَاقِرِيّ حِسَانٍ) بالألف أيضاً، وبغير إجراء. وأما الرفارف في هذه القراءة، فإنها قد تحتل وجه الصواب. وأما العباقري، فإنه لا وجه له

في الصواب عند أهل العربية، لأن ألف الجماع لا يكون بعدها أربعة أحرف، ولا ثلاثة صحاح. وأما القراءة الأولى التي ذكرت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلو كانت صحيحة، لوجب أن تكون الكلمتان غير مجرتين .

قال الازهري في تهذيب اللغة : " قرأ بعضهم : (عباقرى حسان)، أراد بعباقرى جمع عبقري، وهذا خطأ؛ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته، ولا سيما الرباعي لا يجمع الحثعمي بالحثاعمي، ولا المهلهي بالمهالي".

قال ابن كثير : " وَقَوْلُهُ: {وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ} : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ: الْعَبْقَرِيُّ: الرَّزَائِيُّ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هِيَ عَتَاقُ الرَّزَائِيِّ، يَعْنِي: جِيَادَهَا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْعَبْقَرِيُّ: الدِّيْبَاجُ.

وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ قَوْلِهِ: {وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ} فَقَالَ: هِيَ بُسْطُ أَهْلِ الْجَنَّةِ - لَا أَبَا لَكُمْ -

فَاطْلُبُوهَا. وَعَنِ الْحَسَنِ [البصري] رِوَايَةٌ: أَنَّهَا الْمَرَافِقُ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الْعَبْقَرِيُّ: أَحْمَرُ وَأَصْفَرُ وَأَخْضَرُ. وَسُئِلَ الْعَلَاءُ بْنُ زَيْدٍ عَنِ الْعَبْقَرِيِّ، فَقَالَ: الْبُسْطُ أَسْفَلُ مِنْ ذَلِكَ. وَقَالَ أَبُو حَزْرَةَ يَعْقُوبُ بْنُ مُجَاهِدٍ: الْعَبْقَرِيُّ: مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْعَبْقَرِيُّ: الطَّنَافِسُ الْمُحْمَلَةُ، إِلَى الرِّقَّةِ مَا هِيَ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: كُلُّ ثَوْبٍ مُوشَى عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيٌّ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى أَرْضٍ يُعْمَلُ بِهَا الْوُشْيُ. وَقَالَ الْحَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: كُلُّ شَيْءٍ يَسُرُّ مِنَ الرِّجَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُسَمَّى عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيًّا. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عُمَرَ: "فَلَمْ أَرِ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَهُ".

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَصْفُهُ مَرَّاقُ أَهْلِ الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ أَرْفَعُ وَأَعْلَى مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ هُنَاكَ: {مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانُوهَا مِنْ إِسْتَبْرَاقٍ} ، فَنَعَتْ بَطَانِينَ فُرُشَهُمْ وَسَكَتَ عَنْ ظَهَائِرِهَا ، اكْتِفَاءً بِمَا مَدَحَ بِهِ الْبَطَانِينَ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى.

وَتَمَامُ الْحَاقِمَةِ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ الصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} فَوَصَفَ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ وَهُوَ أَعْلَى

الْمَرَاتِبِ وَالتَّهَائِيَاتِ، كَمَا فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ لَمَّا سَأَلَ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ الْإِيمَانِ. فَهَذِهِ وَجُوهٌ عَدِيدَةٌ فِي تَفْصِيلِ الْجَنَّتَيْنِ

الْأُولَيَيْنِ عَلَى هَاتَيْنِ الْآخِرَتَيْنِ ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ الْوَهَّابَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْأُولَيَيْنِ".

قال ابن جرير : " وقوله { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ } يقول تعالى ذكره: تبارك ذكر ربك يا محمد، { ذي الجلال } : يعني ذي

العظمة، {والإكرام } يعني: ومن له الإكرام من جميع خلقه.

كما حدثني علي، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثنى معاوية، عن علي، عن ابن عباس قوله: { ذي الجلال والإكرام } يقول:

ذو العظمة والكبرياء".

ثُمَّ قَالَ: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} أَيُّ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُكْرَمَ فَيُعْبَدَ، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} ذِي الْعِظَمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: "إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَذِي السُّلْطَانِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ وَلَا

الْجَانِي عَنْهُ" (حسنه الالباني في صحيح الجامع).

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا أَبُو يُوسُفَ الْجَبَرِيُّ ، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، حَدَّثَنَا حُمَيْدُ الطَّوِيلُ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْطُّوَّا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ". (وصححه الالباني في صحيح الجامع) وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: أَلَطَّ فَلَانٌ بِفُلَانٍ: إِذَا لَزِمَهُ .

وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: "الْطُّوَّا وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: أَلَطَّ فَلَانٌ بِفُلَانٍ: إِذَا لَزِمَهُ .

وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: "الْطُّوَّا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" أَي: الزَّمُوا. وَيُقَالُ: الْإِلْطَاطُ هُوَ الْإِلْحَاحُ.

قُلْتُ: وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ مِنَ الْآخِرِ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- وَهُوَ الْمُدَاوِمَةُ وَاللُّزُومُ وَالْإِلْحَاحُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَالسُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَلَّمَ لَا يَقْعُدُ -يَعْنِي: بَعْدَ الصَّلَاةِ- إِلَّا قَدَرَ مَا يَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" .

وقال الصابوني: "قال هناك: { فيهما عينان تجريان } وقال هنا: { فيهما عينان نضاختان } ، والجري أشد من النضخ ، وقال هناك: { فيهما من كل فاكهة زوجان } وقال هنا: { فيهما فاكهة ونخل ورمان } والأول أعم وأشمل ، وقال في صفة الحور هناك: { كأنهن البياقوت والمرجان } وقال هنا: { فيهن خيرات حسان } وليس كل حسن كحسن البياقوت والمرجان ، فالوصف هناك أبلغ ، وقال هناك في وصف الفرش: { متكئين على فرش بطائنها من استبرق } وهو الديباج وقال هنا: { متكئين على رفر فخر } ولا شك في أن الفرش المعدة للاتكاء ، أفضل من فضل الحباء { متكئين على رفر فخر } أي مستنديين على وسائد فخر من وسائد الجنة ((هذا قول الحسن وقال ابن عباس : الرفرف : فضول الخابس وهي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه)) .

{ وعبقري حسان } أي وطنافس ثخينة مزخرفة ، محلاة بأنواع الصور والزينة ، قال الصاوي : وهي نسبة إلى " عبقري " قرية بناحية اليمن ، ينسج فيها بسط منقوشة ، بلغت النهاية في الحسن ، فقرب الله لنا فرش الجننتين ، بتلك البسط المنقوشة

{ تبارك اسم ربك } أي تنزه وتقديس الله العظيم الجليل ، وكثرت خيراته وفاضت بركاته

{ ذي الجلال والإكرام } أي صاحب العظمة والكبرياء ، والفضل والإنعام ، قال في البحر : لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله: { ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام } ختم نعم الآخرة بقوله: { تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام }

وناسب هناك ذكر البقاء والديمومة له تعالى ، بعد ذكر فناء العالم ، وناسب هنا ذكر البركة وهي النماء والزيادة ، عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته ، وما آتاهم من الخير والفضل العظيم ، في دار النعيم .

وقال ابن القيم: " والسياق يدل على تفضيل الجننتين الأوليين من عشرة أوجه

أحدها قوله ذواتا أفنان وفيه قولان أحدهما أنه جمع فن وهو الغصن والثاني أنه جمع فن وهو الصنف أي ذواتا أصناف

شقي من الفواكه وغيرها ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما الثاني قوله فيهما عينان تجريان وفي الآخرين فيهما عينان

نضاختان والنضاخة هي الفؤارة والجارية السارحة وهي أحسن من الفؤارة فإنها تتضمن الفوران والجريان الثالث أنه قال

فيهما من كل فاكهة زوجان وفي الآخرين فيهما فاكهة ونخل ورمان ولا ريب أن وصف الأوليين أكمل

الرابع: أنه قال: ﴿متكئين على فرش بطائنها من استبرق﴾، وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرهما، وفي الآخرين قال: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾، وفسر الرفرف بالمحابس والبسط، وفسر بالفرش، وفسر بالمحابس فوقها، وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأولين. الخامس: أنه قال: ﴿وجنى الجنتين دان﴾ أي: قريب وسهل، يتناولونه كيف شاءوا، ولم يذكر ذلك في الآخرين. السادس: أنه قال: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يرون غيرهم؛ لرضاهن بهم، ومحبتهم لهن، وذلك يتضمن قصرهن أطراف أزواجهن عليهن، فلا يدعهم حُسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الآخرين: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾، ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها. السابع: أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحُسنه، ولم يذكر ذلك في التي بعدها. الثامن: أنه قال □ في الجنتين الأوليين: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل، فكان جزاؤهم بإحسان كامل. التاسع: أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين، وجعلهما جزءاً لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه، فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مُقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المُقربين، ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين". (حادي الارواح).

والله اعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الرحمن

جمع واعداد

محمد مريس الحجاجي

المصادر

١- تفسير الطبري.

٢- تفسير ابن كثير.

٣ - تفسير ابن عطية.

٤- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .

٥ - مجموع الفتاوى لابن تيمية.

- ٦- تفسير الخازن.
- ٧- تفسير الكشاف للزمخشري.
- ٨- تفسير أضواء البيان للشنقيطي.
- ٩- تفسير الرازي.
- ١٠- تفسير المجموع الثمين لابن عثيمين .
- ١١- موسوعة التفسير بالمأثور لمجموعة مؤلفين.
- ١٢- فتح القدير للشوكاني.
- ١٣- لسان العرب لابن منظور.
- ١٤- حادي الأرواح لابن القيم .
- ١٥- البحر المحيط لابن حيان الأندلسي.
- ١٦- تفسير الألوسي.
- ١٧- نونية ابن القيم .
- ١٨- تفسير الألوسي.
- ١٩- تهذيب اللغة للأزهري.
- ٢٠- لسان العرب لابن منظور .
- ٢١- التعليق على الجلالين لعبدالكريم الخضير.
- ٢٢- تفسير السورة لمصطفى العدوي.
- ٢٣- التعليق على المصباح المنير لخالد السبت .
- ٢٤- شرح أصول اعتقاد أهل السنة - صفة الوجه والعين لله عز وجل للشيخ : حسن أبو الأشبال الزهيري